سلسلة التاريخ الليبي

٣

ليبيا

في عشرين سنة من حكم الإسبان
(١٥١٠ - ١٥٣٠)

بقلم
محمد مصطفى بازامه

منشورات مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

١٩٦٥

ليبيا

في عشرين سنة من حكم الإسبان

(١٥١٠ - ١٥٣٠)

سلسلة التاريخ الليبي

٣

ليبيا

في عشرين سنة من حكم الإسبان
(١٥١٠ - ١٥٣٠)

بقلم
محمد مصطفى بازامة

حسن يوسف اللموشي

منشورات مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أبنائي الثلاثة ، مصطفى وفوزي وفتحية ،
أهدي هذه الصفحات من تاريخ أمتهم المجيد .

المؤلف ابوكم
محمد مصطفى بازامه

بنغازي ٢٥ سبتمبر ١٩٦٥ م .

فهرس الكتاب

المقدمة

يتناول هذا الكتاب ــ كما هو واضح من العنوان الذي وضعته له ــ فترة من تاريخ ليبيا المديد ، ويكون حلقة من سلسلة التاريخ الليبي الذي آليت على نفسي كتابته أو ما يمكنني منــه . وهذه فترة يتصل تاريخ البلد فيها بالعالم المسيحي ، وفترات التاريخ التي يتصل فيها الأوربيون بالبلاد يلحقها الكثير من التشويه والدس والتزوير لصالح الإفرنج من المصادر الأفرنجية أو تلك التي استقت منها وروت عنها ــ وعلى حساب شرف البلاد وكرامة أهلها . وللمؤرخين الأوربيين في هذا طرق معروفة لمن خبر أسلوبهم في التأليف وتناول أحداث التاريخ ؛ منها أنهم يضغطون أحياناً على حادثة تافهة في صالحهم فيتناولونها بالدراسة والتحليل وتحميل النص ما يحتمل ومـا لا يحتمل حتى تبدو وكأنها شيء له قيمته التاريخية الكبرى والهامة ، ويمرون أحياناً أخرى بالحادثة ذات الخطر العظيم في التاريخ متى ما كانت هذه في غير صالحهم حتى تبدو تافهة صغيرة لا شأن لها ولا أهمية .

ولا يتورع بعضهم أحياناً عن الدس على التاريخ وأحداثه لتغطية أمر

يلحقهم أو يصيب منهم ، كما فعل الأب برنيا في كتابه المسمى « طرابلس من سنة ١٥١٠ حتى سنة ١٨٥٠ »، حين سكوته كلية عن أمر سبي الأسبان للمدنيين من سكان طرابلس حين احتلالهم لها، وبيعهم لهم رقيقاً في أسواق صقلية، لما في هذه الواقعة التاريخية من مظهر غير حضاري وغير إنساني يزري بالمسيحية الأسبانية وبحروبها اللادينية باسم الدين . وحين دسه على التاريخ في نهاية الكونت بدرو نافارو الذي خان بلاده وحمل السلاح ضدها بعد أن بلغ القمة من الحضيض في خدمته لها، وذلك بأن جعـــل لها نهاية مشرقة وضاءة من طريق خبر موته في ميدان الدفاع عن المدينة ، وذلك لأن ذكرهـــا سيجعل من هذه الشخصية التي حققت النصر للمسيحية شخصية مغامر أفاك لا وطنية ولا وطن له . وحين استنكاره على العرب أن يوجد في أبطالهم وقادتهم البحريين أمثال برباروسا الذي أخاف شارل الخامس في عرشه، فدس على التاريخ رواية تجعل منه فرنسياً مغامراً تنكر لدينه وانقلب على وطنه حباً في المال والجاه والثراء. فكأنه يريد بهذا أن يقول ، إن العرب أقل شأناً من أن يولد بينهم أمثال هذا القائد البحري، الذي استطاع بشجاعته وجرأته أن يسلب المسيحيين ما يملكون،ويفرض سيادته البحرية على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، فإذا وجد ولا سبيل للتغاضي عنه فليكن فرنسياً أو غير ذلك .

والإفرنج المؤرخون في هذا ، من أي بلد كانوا ، متفقون ما داموا يكتبون عن العربي وعن التاريخ العربي الإسلامي ، فالحروب الصليبية التي خاضوها قد طبعت تفكيرهم العنصري ولونت إنتاجهم الحضاري

بهذا اللون المزري من التعصب والتحيز والتحامل على العرب والتاريخ العربي لقرون ، حتى أن الباحث فيه من العرب ليجد من الصعب عليه إزاحة ما وضعوه على حقائق هذا التاريخ من حجب وستائر تحجب عن نظره الواقع التاريخي كما هو . ولقد رأيت كاتباً عربياً مواطناً يكتب عن تاريخ هذه الفترة فلا يتمكن من كشف هذا المدسوس في تاريخه عليه ليردد ما كتبوا على أنه حقيقة تاريخية ، ناقلاً عنهم مكتفياً بما قدموا ، مما جعل مَا كتب ليس في معظمه سوى صدى لما يقولون ورجع صدى لما يرددون. مما دفع بي دفعاً إلى تناول هذا الموضوع من جديد محاولاً إعادة تصحيح واقع تاريخ هذه الفترة في حدود ما تفصح عنه تناقضات رواياتهم وفلتات القلم فيها ، معتمداً في دراستي على الربط والمقارنة فيما بين المصادر والأحداث ، حيثما كان هـذا ممكناً لاستخلاص نتائج تتفق والمنطق التاريخي المعقول .

والدراسة التي من هـذا النوع تتطلب تجرداً علمياً حاولته ، ولا أدعي لنفسي بلوغ الغاية فيه . فالإنسان ابن بيئته ،وسجين معتقداته،ومن المستحيل عليه أن يكون كذلك في هذا الميدان من العلوم وفي مثل هذا النوع من الأبحاث . وأنا لا أنكر ما في هـذا الأمر من صعوبة ، ولا ما يعترض طريق الباحث من مزالق وفي البحث من تشعب . ولهذا فإني لا أدعي الجزم بانني قد وفقت في جميع ما قمت به وما قدمت من دراسة فيه ومن احتمالات ومن استنتاجات، ولكنني راض بما قدمت فيما حاولت، ويكفيني أنني قد رسمت منهجاً (أو ساهمت في وضعه) لإعـادة كتابة

التاريخ العربي الذي شوهته أقلام المغرضين من علماء المستعمرين واذنابهم من العلماء المستغلين . فليتقبل القارىء العربي لهذا الجزء على أنه محاولة في الموضوع ، وليدرسه على أنه كذلك ، وما توفيقي إلا بالله .

المؤلف

بنغازي ، يونيه ١٩٦٣ م .

م.م. بازامه

القسم الأول

الأسبان يحتلون طرابلس

تحول الصراع بين المسيحية والاسلام الى الشمال الأفريقي

كان النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ، من أهم فترات التاريخ لكل من شعوب المسيحية والاسلام حتى أن مؤرخي أوربا اعتبروه نهاية العصر الوسيط Medioevo وبداية العصر الحديث ؛ ففي سنة ١٤٥٣ تم لمحمد الثاني فتح مدينة القسطنطينية فانتهت بذلك الدولة الرومانية الشرقية ، وزالت بزوالها السيادة الرومانية على الحوض الشرقي للبحر المتوسط [١] إذ سيطرت عليه القوات التركية العثمانية منذ ذلك الحين ؛ وان كان الصراع لم ينته بين القوتين العظيمتين هنالك إلا بعد طرد آخر معاقل القوات الصليبية من جزيرة رودس سنة ١٥٢٣ ، فبهذا فقط انتهى الصراع بين تينك القوتين للسيادة البحرية على حوض

---

١ - يمكن تقسيم البحر الأبيض المتوسط إلى أحواض تتفاوت اتساعاً واهمية باختلاف تباعد الحدود التي تعين كل حوض منها وتباين الوضع الحضاري للدول الواقعة على شواطئه . ومن أهم هذه الأحواض حوض يقع في الشرق ويحد بشبه جزيرة الموره من بلاد اليونان وجزيرة كريت وشبه جزيرة برقة من ليبيا وحوض يقع في الغرب ويحد بشبه جزيرة ايطاليا وبصقلية وبرأس بون في تونس . وحوض بينهما هو الحوض الأوسط وتتحكم فيه القوة المسيطرة على جزيرة مالطا والموانىء الليبية ، ولكنه يفقد اهميته بالسيطرة على الحوضين الشرقي والغربي (راجع بعيو ، في : دراسات في التاريخ اللوبي ص ١١٠ - ١١١) .

البحر المتوسط الشرقي لصالح العثمانيين .

وفي سنة ١٤٩٣ (٢ بناير) سقطت مدينة غرناطة في يد الملك فرديناند الكاثوليكي فتم للأسبان على إثرها السيطرة على الأندلس العربية سياسياً ، ثم بقرار طرد جميع المسلمين من شبه جزيرة ايبريا الذي اتخذه ملك الكاثوليك فرديناند ذاته سنة ١٥٠٣ وبتنفيذه تم إخراج المسلمين عن بلاد الأندلس ، وتنصير من فضّل منهم البقاء بها ؛ وبهذا انتهى الصراع بين القوتين في جنوب غرب أوربا لصالح المسيحية .

غير أن الصراع الذي انتهى بسيادة العثمانيين على مياه شرقي البحر المتوسط لم ينقل الصراع من شواطىء أقاليم الشمال في هذا الحوض إلى سواحل أقاليم جنوبه لخضوع جميعها للسيادة العثمانية المباشرة [1] . أما التفوق المسيحي على العرب في الأندلس ، وسيادة المسيحيين سياسياً على أقاليم الشمال في الحوض الغربي منه فلم تكن تمتد إلى سواحل أقاليم الجنوب منه والتي كانت آنذاك عربية السيادة إسلامية العقيدة .

وكانت أوربا حتى ذلك التاريخ متأخرة حضارياً واقتصادياً ــ لا سياسياً ــ عن العالم العربي (في غرب أوربا على الأقل) وكانت سيطرة دولة الكنيسة على شعوبها سيطرة روحية ودنيوية معاً ، إلى جانب

---

١ ــ واذا كان استيلاء الأتراك على البلاد العربية المطلة على هذا الحوض قد تأخر حتى سنتي ١٥١٦ (سورية) و ١٥١٧ (مصر وبرقة) فإن هذه البلاد كانت مع ذلك في يد قوات الاسلام الأخرى والتي كانت في حالة صراع سافر مع الصليبية الأوربية منذ قرون (راجع ساطع الحصري في : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٣٧ – ٤١) .

سقوط عاصمة الإمبراطورية الرومانية في يد العثمانيين، وما كان ـ بالتالي ـ لهذا الأمر من تأثير نفساني على الأوربيين ، واحساس بالفشل ، ثم ما كان من فشل الحملات الصليبية المتكررة بالرغم من كل ما قدم لها ومن ساهم فيها من شعوب المسيحية بالانفس والأموال : جميع هذه كانت عوامل ساعدت في دفع مسيحية غرب أوربا نحو تعصب ديني بغيض لم تعرفه البلاد العربية لا في أيام قوتها ولا حتى حين ضعفها ، تعصب ديني متطرف إلى أبعد حدود التطرف ، وهذا التعصب الديني هو القوة التي دفعت بالملك فرديناند الاراجوني D'Aragona (هو ذاته) وايزابيلا القشتالية Isabella di Castiglia إلى اتخاذ قرار طرد المسلمين الذين لا يعتنقون الدين المسيحي من جميع البلاد [1] الخاضعة لسلطان المسيحيين من شبه جزيرة ايبريا .

ولعله من نافلة القول أن هذا التصرف السياسي العدواني من جانب هذا الملك وحكومته قد عمق الهوة بين الإسلام والمسيحية ولم يخدم أيهما باكسابه طابع الصراع الديني وجعل من غير الممكن أن تصل قوة دينية مالكة لحريتها وارادتها في التصرف ظلمت بما لا تجد مبرراً معقولاً له إلى أي تفاهم أو مسالمة مع القوة الأخرى التي بغت عليها

١ ـ ولم يكن هذا الصراع بين القوتين شراً على الإنسانية فإليه يرجع الدافع الحقيقي لأولئك المغامرين الذين كشفوا عن أمريكا وداروا حول رأس الرجاء الصالح ليجدوا لسفنهم طريقاً إلى جزر الهند الشرقية ، أما التعصب الديني للمسيحية في أوروبا فهو وان قاست منه شعوب اقاليمها وتعرضت شخصيات أحراره لزبانية محاكم التفتيش فلم يكن وبالاً على غير الكنيسة ذاتها إذ فقدت بسبب مغالاتها فيه إيمان الناس وصدقت حكمة القرآن حين قررت آياته « أن لا اكراه فى الدين » .

فشردتها وسلبتها كل ما تملك من أرض ومال . فالتعصب الديني لدى شعوب الشمال الإفريقي إنما تسأل عنه المسيحية لا الإسلام "[1] .

هذان العاملان الأساسيان (التعصب الديني المسيحي ، والسيادة الدولية) هما اللذان دفعا بالصراع البحري بين المسيحية والاسلام أو بين تركيا ودول أوربا نحو السواحل الجنوبية للحوض الغربي من البحر المتوسط ، وكان الصراع البحري بين القوتين للسيادة على هذه المنطقة منه والذي امتد بضعة قرون يشتد آونة فيتخذ طابع الغزو والاستيلاء حينا ويضعف أخرى فيقتصر على مناوشات السفن والمعارك البحرية والغارة الخاطفة على السواحل حيناً آخر ؛ وكانت بلدان الشمال الإفريقي تضطلع بالقسط الأوفر في هذا الصراع وتتعرض وحدها لغزوات جيوش وأساطيل المسيحيين ولذلك اشتهرت مدن وثغور المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس بأساطيلها الحربية ونشاطها الكبير في حرب هذا الصراع المديدة التي اشتهر بالقرصان والقراصنة أبطالها من الجانبين "[2] . ولم يقض عليها غير تحضير أوربا وتكتلها جملة ضد هذه

---

١ – يراجع ما كتب الاستاذ مصطفى بعيو ،في:دراسات في التاريخ اللوبي،ص١٢١ – ١٢٩ حول هذا الموضوع .

٢ – اسم قرصان كلمة دخيلة في العربية عن احدى اللغات الأوربية التي فيها نجد هذه الكلمة Corso أو Corsaro وليس عن فعل قرص في العربية . وهي في تلك اللغات من حيث المعنى اللغوي لا تدل على ذلك المعنى الآخر الذي اكتسبته كاسم ذي دلالة معينة ،فهي انما تعني السباق او العدو .ولعل ذلك هو السبب في إطلاق القرصان على لص البحر والمحارب فيه حرباً لا شرعية . فالمعلوم أن سفن القراصنة من ابرز ميزاتها السرعة في اللحاق بالسفن وفي الفرار منها .

الدويلات ومحاربتها للنشاط البحري الذي تزاوله سواء في ميدان الصراع أو التجارة أو الملاحة وتفوقها العسكري السياسي الاقتصادي العلمي الذي توج باكتشاف البخار وما أعقبه من ثورة صناعية شملت انقلاباً تكنولوجياً في السفن الحربية والتجارية على السواء أدى إلى التفوق الكامل للبحرية الاوربية في نهاية الصراع .

وكانت مدن وهران والجزائر وبجاية وتونس وطرابلس أول ما تعرض من مدن الشمال الإفريقي لغزوات قرصان الإسبان في حملات منظمة تحت قيادة القرصان الكونت بدرو نافارو[1] Conde Pedro Navarro وذلك في العقد الأول من القرن السادس عشر .

أما في الشرق فقد كان لفتح الأتراك مدينة القسطنطينية أثره في اتجاههم – لتفرغهم – نحو البلاد العربية حتى انتهوا في عهد السلطان سليم الأول إلى برقة التي تبعت السلطنة العثمانية بحكم تبعيتها الإدارية لمصر التي استولوا عليها سنة ١٥١٧ م . أي بعد استيلاء الاسبان على

---

١ – ولد سنة ١٤٦٠ في بسكاليا حسب رواية ، وفي نافارا حسب أخرى من اصل غير الطبقة العليا او السادة ، اشتغل بالتعدين ثم كبحار (قرصان) ونجح لجرأته في مغامراته . وفي سنة ١٤٩٩ – ١٥٠١ انخرط في جيش دون كونسالدو القرطبي وعمل معه في بحر أيونيه Ionio وفي إيطاليا الجنوبية ، واشتهر خلالها بشجاعته واقدامه لا سيما كمهندس عسكري (؟) في حروب استعادة مملكة نابولي . منح سنة ١٥٠٤ على شكل إقطاعيـة مدينة اوليفانتو Olivanto ، ولقب بالكونت . وفي سنة ١٥٠٩ اسندت إليه قيادة حملة وهران التي امتدت بعملياتها العسكرية إلى بقية المدن التي ذكرنا من الشمال الإفريقي حتى انتهت إلى طرابلس (راجع ترجمة حياته في كتاب « Historira Del Conde Pedro Navarro » تأليف « Don Martino de Los Heros مدريد ١٨٥٤) .

طرابلس (المدينة) بسبع سنوات . وهكذا بدأ الصراع على طرابلس ذاتها ، بعد ذلك التاريخ [1] .

ولما كنا في هذا الكتاب إنما نؤرخ لليبيا وحدها من الوطن العربي في جناحه الغربي فإننا مضطرون لهـذا أن نضرب صفحاً عن غزو الإسبان لمـدن الشمال الإفريقي الأخرى كما أننا سنقتصر على حوادث تاريخ هذا الصراع في ليبيا فقط ، في بقية فصول الكتاب كذلك .

١ – لعله من الغريب حقاً أن نجد التاريخ يعيد ذاته في هذا الصراع وفي ذات الإقليم بالذات وبين قوتين من نفس المركز ولها نفس الاتجاه المتضاد ، فقد حدث قبل الف سنة من ذلك التاريخ (القرن السادس الميلادي) ان اجتاحت شمال القارة موجة الغزاة الفندال استولت من اسبانيا على شمال إفريقيا حتى طرابلس دون برقة بينما ظلت برقة خاضعة للامبراطورية الشرقية وعاصمتها ذات القسطنطينية ، واستمر الحال هكذا حتى قضى قائد جستنيان بلزاريوس على الفندال كما سيقضي قائد سليمان القانوني على قوات فرسان مالطا الذين جاءوا ليتولوا الدفاع عن الثغر الذي احتله الاسبان على ما سيأتي بيانه في هذا الكتاب .

وضع ليبيا السياسي في هذا العهد

وتاريخ ليبيا في هـــذه الفترة من التاريخ ينتابه الكثير من الغموض ، فالحكومة التي تسيطر على طرابلس باعتبارها عاصمة الإقليم لا يمتد نفوذها السياسي إلى أبعد من أسوار المدينة ذاتهـــا إلا في فترات محدودة من الزمن ، وحينما تكون الحكومة المسيطرة عليهـــا من القوة بحيث تتمكن من ذلك . أما بقية البلاد فقد كانت تحكم من أهلها حكماً محلياً يسيطر عليه شيخ أو شيوخ القبائل التي تسكنها يعاونهم في ذلك اعيان القوم ووجهاؤهم ، القانون السائد فيه للعرف، والنظام تكونه العادة ، والامن فيها يحفظه توازن كتل السكان الاجتماعية ، وخوف كل جماعة فيها من الجماعة الأخرى . أما اقتصادياً ، فإن الزعامة على هـــذه المناطق لطرابلس التي يمتد نفوذ تجارهـــا حتى السودان ، حيث كانوا يسيرون القوافل التجارية محروسة بالرجال المأجورين ، أو بالحرمة التي يتمتع بها التاجر بين القبائل التي ينتمي لاحداها هو أو شركاؤه او مستخدموه . يدلنا على هذا ما تتمتع به طرابلس المدينة آنذاك من رخاء

واستقرار وثراء .

لذلك يصعب على المؤرخ لهذه الفترة أن يذكر للبلاد تاريخاً غير تاريخ طرابلس السياسي ، على اعتبار أن تاريخ العاصمة هو في ذات الوقت تاريخ لبقية البلاد في ذات الزمن . وهذا ما يلجأ إليه معظم المؤرخين حديثاً وقديماً في جميع البلدان ، ولكن دون التنبيه عليه ، وهو ما لا يمكننا نحن إتيانه هنا لسببين : الأول ، أن هذا تحايل على التاريخ ذاته ، واطلاق للجزء على الكل في وقت لا يمثل هذا الجزء حقيقة الكل تمثيلاً سياسياً فعلياً . والثاني لأن هذا ، متى ما قلنا به ، يجرنا بالتالي إلى القول بأن الاسبان في سيطرتهم على طرابلس المدينة قد سيطروا على جميع الأقليم ، وفي هذا افتئات على التاريخ ونسبة دور الى الاسبان من الثابت عجزهم عن القيام به .

وكانت طرابلس الولاية تخضع للحفصيين خضوعاً مباشراً في عهد قوة هذه الدولة غير أنها في حالة ضعفها أصبحت سيادتها عليها إسمية وحسب ، ولا سلطان لحاكم إفريقية على طرابلس وأهلها ولا نفوذ له بينهم . وكانت برقة هي الأخرى تتبع سلطان المماليك في مصر ، تبعية إسمية في هذا العهد على الرغم من انتشار سلطان هؤلاء على معظم الشرق العربي . لذلك خضعت اسمياً كذلك للسلطان سليم الأول حينما قضى هذا على دولة المماليك وأنهى عهدها بينما تأخرت تبعيتها الفعلية للأتراك إلى ما بعد ذلك التاريخ بزمن

طويل .

لهذا الذي تقدم نحب أن يؤخذ هذا الكتاب على أنه تاريخ لخضوع طرابلس إلى الاسبان في ليبيا ، وليس على أنه تاريخ ليبيا الخاضعة في مجموعها للأسبان .

وصف مدينة طرابلس

يتفق كتاب العرب والإفرنج في وصف مدينة طرابلس في ذلك الوقت، ويجمعون على أنهـا من أهم بلدان الشمال الافريقي وثغوره الحربية البحرية، وأجملها مباني وأحصنها أسواراً. فهـذا الرحالة التونسي أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني يقوم برحلة فيما بين سنتي ٧٠٦ و ٧٠٨ هـ. (١٣٠٦ ـ ١٣٠٨ م) يزور فيهـا طرابلس، فيما ارتاد من بلاد (تونس وغرب طرابلس) فيصفها في رحلته التي عرفت باسمه « رحلة التجاني » [١] فيقول : « ولما توجهنا إلى طرابلس، واشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار فعرفت صدق تسميتهم لهـا بالمدينة البيضاء » [٢] ويضيف إلى هذه الصفة صفة أخرى فيقول « ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة

١ ـ نشر هذه الرحلة كتابة الدولة التونسية للتربية القومية والشباب والرياضة، وطبعت بالمطبعة الرسميـة بتونس سنة ١٩٥٨ وقـدم لهـا وراجع أصولها الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب .

٢ ـ ص ٢٣٧ . ولا أعرف رواية أخرى غير هذه تنعتها بالمدينة البيضاء . ولعل الرحالة كان يشير إلى ما كان يطلقه عليها معاصروه من مواطنيه ممن زارها .

وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية ، فالماشي يمشي بها مشي الرخ خلالها [1] » .

أما القائد الأسباني بدرو نافارو الذي استولى عليها فقد كتب من تقريره إلى نائب الملك في صقليـة في وصفها ما يلي : « ... أيها السيد : هذه المدينة أعظم كثيراً مما كنت أظن ، وبالرغم من أن جميـع الذين وصفوها قد اجادوا الوصف إلا أنني أرى أنهم لم يتجاوزوا نصف الحقيقة فقط ؛ وبين جميـع المـدن التي شاهدت في هذه الدنيا لم أجد مدينة تضاهيها سواء في تحصيناتها أو في نظافتها ، وهي تبدو كمدينة امبراطورية اكثر مما هي مدينة لا تخص ملكاً واحداً [2] » .

وهاتان الروايتان لا تختلفان كثيراً عن بعضهما بالرغم من أن ما بينهما من زمن هو مائتان من السنين . ولعل اتفاقهما راجع إلى كون كل منهما شاهد عيان يصف ما رأته عيناه ، وفي وصف هذا القائد لها أيام الاستيلاء عليها وموافقتـه لمن سبقه في الحديث عنها بهذه الفترة مـا يغنينا عن البحث عن المزيد من روايات الرحالة والرواد الذين سبقوا هذا العهد بمـدة كالبكري أو عاصروه كالرحالة الهولاندي مارمول Marmol أو جاءوا متأخرين عنه كالعياشي .

أما عن تحصينات هذه المدينة ، فقد ذكر الرحالة التجاني في رحلته

١ - ص ٢٣٨ ولا اعرف ما الذي يقصده بمشي الرخ خلالها .

٢ - Ettore Rossi : - Il Dominio Dei Spagnoli E Dei Cavalieri di Malta A Tripoli (1510 - 1551) airoldi 1937 pag . 14 .

ما يغنينا عن غيره في كثير من النواحي ، فقد ذكر أن عمرو بن العاص هدم سورها حين ارتحاله عنها بعد فتحها [١] ويضيف « ... ثم جدد بناء سورها من جهة البر على يد عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على افريقية في آخر دولة بني أمية سنة ١٣٢ هـ [٢] . وتأخر بناؤه من جهة البحر إلى ولاية هرثمة بن أعين على افريقية من قبل الرشيد سنة ١٨٠ هـ [٣] . فهو الذي ابتناه على يد ثقته زكرياء بن قادم [٤] ».

ويقول النائب في ص ٧٥ من المنهل العذب أن سفيان بن أبي المهاجر قد ولي طرابلس للمرة الثانية سنة ١٩٦ هـ ، وأن هوارة قد ثاروا عليه « فخرج الجند عليهم والتقوا فاقتتلوا فهزم الجند إلى المدينة فتبعتهم هوارة ودخلوا المدينة وهدموا أسوارها ، ولحق الجند بالأمير ابراهيم بن الأغلب فأعاد معهم ابنه عبدالله في ثلاثة عشر ألفاً من العساكر ففتك واثخن فيهم ، وضبط البلد وجدد سورها [٥] . ولم يذكر التجاني هذا الهدم ولا التجديد الثاني، وإنما انتقل من عهد هرثمة إلى الحديث عن تاريخ السور في القرن الرابع فقال « ثم زاد في اتقانه (أي السور) ورفع بنائه من جهة البر والبحر معاً أبو الفتح زيان الصقلبي [٦] متولي طرابلس عام ٣٤٥ هـ [٧] ».

---

١ – ص ٢٣٩ .
٢ – ذكر هذا أيضاً النائب في المنهل العذب ص ٦٣ من طبعة الفرجاني .
٣ – هذا أيضاً ذكره النائب في المنهل ص ٧٢ .
٤ – التجاني : رحلته ص ٢٣٩ .
٥ – احمد النائب : المنهل العذب ص ١٣٤ .
٦ – وهو عند النائب : الصقلي لا الصقلبي (ص ٩٩).
٧ – رحلته ص ٢٤٠ .

ولم يذكر التجاني كذلك أن الإفرنج حينما هاجموا المدينة سنة ٥٣٧هـ نقبوا سورها ، وأنهم مع ذلك لم يستولوا عليها لتدخل العرب من خارجها في الدفاع عنها [١] ، ولا هو ذكر أنهم حينما استولوا عليها فيما بعد سنة ٥٤٣ هـ . أصلحوا سورها وخنادقها [٢] ربما لتحميهم من غارات العرب عليها لاستعادتها من أيديهم ؛ وإنما انتقل إلى الحديث عن وصف السور في زمنه ، فقال [٣] : « ويحيط بهذا السور الآن فصيل آخر أقصر منه على العادة في ذلك يسمونه الستارة ، ولم يكن في القديم ، وإنما أمر ببنيانه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص أيام وصوله إلى طرابلس في شهر شعبان من سنة ٦١٤ هـ . رأيت هذا مكتوباً على باب من أبواب الستارة يعرف بباب عبد الله ، ولم يصلوا هذه الستارة حين بنوها بالبحر ، وإنما انتهوا بها إلى الباب الأخضر ، وبينه وبين البحر فسحة فأتمت بالبناء أيام مقامنا (سنة ٧٠٧ هـ) [٤] ويقابل باب الستارة .... المعروف بباب عبد الله ، من السور القديم باب يعرف بباب هوارة نسبة إلى من نزل به في أول الزمان [٥] » أما عن السور في عصره وعن مدى العناية بـــه فيقول : « ... ورأيت بسورها من الاعتناء ، واحتفال البناء ، ما لم أره لمدينة سواها ، وسبب ذلك أن لأهلها حظاً من مجباها ، يصرفونه في رم سورها ، وما تحتاج إليه من مهم أمورها ، فهم لا يزالون أبـداً يجددون البناء فيه ويتداركون تلاشيه بتلافيه . ورأيتهم قـــد شرعوا في حفر

١ - التائب : المصدر السابق ص ١٣٤ .
٢ - التائب : المصدر السابق ص ١٣٤ .
٣ - في رحلته ص ٢٤٠   ٤ - ص ٢٤٠ .
٥ - ص ٢٤٥ .

خندق متسع يرومون أن يصلوه بالبحر من كلا جانبي البلد ، وابتداء حفره من الركن الذي بين القبلة والمشرق ، وعارضهم في حفره هنالك موضع يعرفونه بالرملة وهو حقف رمل متسع لاصق إلى جانب السور »[١] . وهذا الوصف من التجاني الذي يفصله عن حوادث العصر الذي نؤرخ – كما سبق أن ذكرنا – قرنان من الزمان نجده في وصف من عاصر احتلال الاسبان لها منهم فهذا باستينودي تونسيس Bastino de Tonsis الذي شهد الحملة مشاركاً مع الجيش الأسباني فيها يكتب في وصف طرابلس فيقول: «مدينة طرابلس مربعة الشكل على أرض منبسطة يزيد محيطها على الميل ، ولها سوران بينهما خنادق ضيقة عميقة ، والسور الأول قصير أما الثاني فمرتفع وسميك ، وعليه الأبراج العالية الحصينة ،ويحيط البحر بالمدينة من ثلاث جهات تقريباً ، ولها ميناء عظيم يتسع لما لا يقل عن اربعمائة سفينة ومركب . ويقال إن عدد سكانها أكثر من عشرة آلاف من المور (العرب المغاربة) وبعض اليهود[٢] » . وهذه الرواية لا تختلف هي الأخرى عن الذي ذكره التجاني في وصف السور والستارة أو الفصيل . وسيعزز هذا الوصف لها ما سيرد في أخبار معركة استيلاء الإسبان عليها[٣] .

---

١ – ص ٢٣٨ .

٢ - Ettore Rossi : - المصدر السابق ص ١٥ ، عمر الباروني : - الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، ص ٣٧ - ٣٨ .

٣- ولذلك فلا أعرف مصدراً لما أورده الباروني في ذات المصدر من إهمال الشيخ عبدالله (حاكم المدينة) لحصونها واسوارها في ص ١٤ – ١٥ حتى « فقدت طرابلس مكانتها المرموقة كمركز استراتيجي يشرف على الحوضين الشرقي والغربي من البحر المتوسط » . ذلك ان احداث الصراع لا تبرره .

واذا كان من غير الضروري لهـــذا البحث وصف طرابلس في مساجدها ومدارسها واسواقها وبقية مظاهر العمران بها فإن الإلمام بشيء من وصف حصنها أو قصبتها (السراية الحمراء) ومسجدها الأعظم لا غنى لنا عنه لورودهما في أنباء الدفاع عنها يوم الاحتلال . فأما عن الحصن أو القصبة فقد ذكر التجاني في رحلته : ... وتخلى والي البلد اذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها ،ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة غير أن الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاة أكثرها . فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن إنما استخرجت منها [1] » . أما عن تاريخ هذا الحصن (أو القصبة) وإلى أي عهد يرجع فقد استكثر الكتاب الايطاليون – فيما يبدو – على التاريخ العربي أن ينسب إلى العرب بنـاء هذا الحصن فأعادوه إلى عهد روماني [2] بالرغم من عدم توفر أي دليل مادي من آثاره على إمـكانية قيام هذا الفرض [3] .أما مـــا ذهب إليه Aurigemma في مقاليه ، والباروني في كتابه من أنه من الثابت المؤكد وجود

---

١ – ص ٢٣٧ من الرحلة .

٢ – ذكر Salvatore Aurigemma في مقال له بعنوان : Le Fortificazioni Della Città Di Tripoli ثم في الملحق رقم ١ من كتاب La Rinascita Della Tripolitania بعنوان: Il Castello Di Tripoli Di Barberia (ص ٥٣٦) هذا الادعاء الذي أقامه أصلاً على فرضا نه ما دامت الاسوار قد وجدت حول المدينة في العصر الروماني ، فمن الجائز ان يكون القصر ايضا قد وجد معها وانه دمر مع الأسوار حين الفتح العربي.

٣ –وقد جاراهم في هذا الاستاذ عمر الباروني فقال بما قالوه معتمداً في ذلك على ما ذكروه في مصادرهم : « ... فربما يرجع بناؤه إلى العهد الروماني ، ولم يعثر في القصر أثناء أعمال الحفريات التي اجريت به على أي شيء يمكن أن يؤخذ كوثيقة على وجود هذا القصر الروماني » (ص ١٨ من كتابه المذكور).

القصر في عهد الأغالبة فلا دليل تاريخي لهم عليه سوى ثورة سكان طرابلس (المدينة) على عامل ابن الأغلب بها (سفيان ابن أبي المهاجر) واخراجهم له من داره وبالتالي من طرابلس [1] سنة ١٨٩ هـ . وليس من الضروري أن تكون داره كحاكم ، هي هذه القصبة فمن الجائز جداً (لما سيرد فيما بعد) أن تكون هذه الدار أخرى غير القصبة وفي غير موضعها . كما أن وجوده لم يثبت تاريخياً في عهد استيلاء الفرنج (روجار Rugero)على طرابلس ، فقد كانت رواية التجاني والمنهل العذب لا تشير ولو إشارة عابرة إلى أمر هذا الحصن بل ان في رواية النائب ما يكاد يفصح عن عدم وجود أي حصن للمدينة في ذلك التاريخ [2] .

واذا جاز لي أن أتساءل عن السبب الذي جعل هؤلاء الكتاب من الإيطاليين يحمّلون النص ما لا يحتمل ويجزمون استناداً إليها بوجود القصر أو الحصن أو القصبة في ذلك التاريخ فإنني سأجد الجواب الصريح في أنهم وقد قالوا بامكانية أصله الروماني لا بد وأن يقربوا ما أمكن

---

١ ـ احمد النائب : ـ المنهل العذب ص ٧٣ .

٢ ـ احمد النائب : ـ المنهل العذب ص ١٣٦ ، فهو يشير إلى اصلاح السور وخنادقها ويسكت عن ذكر أي بناء يمكن أن يدل على أنه حصن أو قصبة. التجاني : ـ رحلته ص٢٤٢ « واحدث الله عند أهل طرابلس عزماً على القيام عليهم والتخلص من أيديهم فأسروا النجوى بذلك بينهم واتعدوا لليلة معينة ونصبوا تلك الليلة في الطرقات خشباً واناشيط تمنع الخيل من الجري فيها وثاروا عليهم ، فبادر النصارى إلى خيولهم وركضوها فلم تجد مجالا فأخذوا قبضاً باليد وعاد البلد الى المسلمين ». وليس في هذه الرواية ما يدل على وجود قصر أو حصن أو قصبة بل اذا كنا نعطي أنفسنا ذات الحق في الاستنتاج فنقول بأن وضع هذه العراقيل في الطرقات يكاد يوحي بتشتت مساكنهم في المدينة على اكثر من بقعة أو حارة . ولكننا لا نقول به لنقصان الدليل التاريخي المشجع عليه .

بين العهد الرومي وأول مرة يرد فيها ذكر الحصن . وفي أنهم وقــد وجدوا في رواية الزركشي[1] وفي رواية ابن خلدون[2] ما يؤكد نشأته العربية المتأخرة لا بد وأن يصرفوا عنهــا النظر بالتشكيك في صحتها التاريخية من طريق إثبات نشأة أو وجود أقدم زمنا .

أما الرواية الصريحة فقد وردت في المصدر كما ذكرها Aurigemma ذاته فهي : « فيما بين نهاية سنة ٧١٧ هـ . وبداية سنة ٧١٨ استقر أبو يحيى زكريا اللحياني بطرابلس وبنى بها موضعاً لاجتماعاته (مجلسه) سمي بالطارمة[3] وزخرفه بالقيشاني والرخام » . وقــد أورد نفس الكاتب رواية ابن خلدون التي يقول فيهـا : ـ « إن ابا يحيى زكرياء اللحياني عندما استقر في طرابلس ، بنى دائرة لأعمال حكمه عنـــد أسوار

---

١ ـ وقد اشار إليها Aurigemma في هامش ص ٢٣٧ من ملحق الكتاب المشار اليه : فقــال في هامش ٢ مــا يلي : Chronique des Almohades et des Hafçides Attribuée à Zerkchi, Trad. Franç. E. Fagnan , Costantine 1896 (خامس مجموعة المجلد ١)ص ٩٦ . وذلك كمرجع رجع في نقل الرواية إليه .

٢ ـ وقد ذكره أيضاً نفس الكاتب كمرجع تاريخي في الهامش ٣ من ذات الصفحة .

٣ ـ وأورد الباروني الذي رجع إلى ذات المصدر هامشاً على هذه التسمية فقال : « وجاء في الامثال الطرابلسية القديمة : « فلان رفعوه الى الطارمة » . ولا يزال هذا المثل مستعملاً في طرابلس بمعنى أن فلاناً رفع أمام القضاء » . ولا معنى للكلمة في برقة بهذا الشكل، ولكنهــا تعني فيها الأرفف والبنك (الطاولة) التي يصفف التاجر عليها بضاعته المعروضة للناس . فهل معناها قفص الإتهام أي المحكمة أو دار القضاء كما هي في حاشية الباروني أم أنها سميت بالطارمة للزركشة التي زخرف بها المبنى حتى بدت كطارمــة دكان التاجر المزخرفة بالبضائع المختلفــة كما يشف عنه معناها في برقة ؟ انـ هذا من اختصاص الباحثين اللغويين .

المدينة في الجهة القريبة من البحر » وذكر ابن خلدون أنها كانت تسمى « الطارمة » .

ولا تترك لنا الرواية الأولى شكاً في أن الدار لم تكن موجودة من قبل وأن هذه الدار هي التي أصبحت فيما بعد الحصن أو القصبة تؤكدها الرواية الثانية . وأبو زكرياء اللحياني هذا معاصر للتجاني فهو أميره ، ولا يعقل أن يكون الذي ابتنى القصبة اثنـــاء إقامته بطرابلس فلو كان ذلك قد تم أثناء الاقامة الأولى (زمن الرحلة) لذكره التجاني وأسهب فيه ، ولو تم أثناء الاقامة الثانية (بعد العودة من الحج) لما ذكر الرحالة تلك الفقرة التي أوردناها في صفحة ٣١ (ص ٢٣٧ من الرحلة) . وإذن فإما أن تكون الدار التي عرفت بالطارمة غير تلك التي وصف التجاني وإما أن تكون الرواية التي وردت عن الزركشي وعن ابن خلدون قد نسبت خطأ أمر تشييد الدار إلى أبي يحيى زكرياء اللحياني ، ونحن أميل إلى الأخذ بهذا الاحتمال الأخير ، فقد يكون الذي بنى (الطارمة) هو أبو يحيى رافع ابن مطروح ، وقد تم بناء القصبة (أي الطارمة) لو أن الأمر كان كذلك في عهد ولايته الثانية فيما بين سنتي ٥٥٣ و ٥٦٨ ه . فكلاهما يكنى بأبي يحيى ، وكلاهما قد بلغ (في الحكم) من الكبر عتياً ، وكلاهما ترك بلاده إلى الإسكندرية حيث استقر حتى مات بها . وهذه أمور تدعو إلى اللبس والاشتباه لغير المدقق من المؤرخين . وهـــذه الفترة التي تمتد إلى مائة وخمسين سنة من الزمان كافية لأن تفقد القصبة من عمرانها ما شاهده التجاني ووصفه . يضاف لصالح هذا الإحتمال مـــا

أورده التجاني نفسه عن موضع الرياض قال عنه : « وكان فيما يقابل هذه القصبة موضع يعرف بالرياض مخصوص بوالي البلد ، وأصله من مباني بني مطروح رؤساء طرابلس في القديم . ويذكر عن حسنه [كيف ؟] كان وثماره وضخامة مبانيه وهو الآن خرب غير أن به آثاراً دالة على ما يذكر عنه ، وقد اقطع هذا الموضع في هذا الوقت لبعض العرب فغيره عن حاله وابتنى في موضعه داراً ».[1]

وأخيراً نجد لأول مرة إشارة إلى القصبة صريحة باسم قصر طرابلس عند النائب في أخبار قراقاش الذي يقول : « ... على طرابلس فحاصرها قره قوش وافتتحها واستولى عليها ونزل باهله وعياله في قصرها ، ...»[2] على أن حكاية بناء الطارمة هذه يعود إليها النائب فيذكرها (ص ١٧٦) ولكنه ينسب بناءها إلى عبد الواحد بن أبي يحيى اللحياني الذي عاد إلى طرابلس بعد وفاة والده كما يذكر أن اسمها الضارمة بالضاد المعجمة وليس بالطاء ويجعل ذلك سنة ٧٣٢ هـ . وهذا لا

١ ـ الرحلة ص ٢٣٧، وفي قوله مخصوص بوالي البلد ما يمكن أن يعني ان القصبة كانت خاصة بالحامية من الجند ، وكونه مشتملا على مباني ضخمة إلى جانب الاشجار المثمرة لا يعني الا أنها دار السكن التي للوالي وقد يمارس فيها الحكم كذلك . ثم إن خرابه في سنة ٧٠٧ هـ . واقطاعه لبعض العرب فيه ما يعطي الدليل على صحة احتمالنا في كفاية المدة بين ابن مطروح والتجاني ليخرب جانب من القصبة وتقطع أو تباع أجزاء منها هي ما يكون الدور المحيط بها . ونسبتها إلى بني مطروح في النهاية دليل إذا ما راعينا أن الطارمة في رواية الزركشي ورواية ابن خلدون نما كانت مجلساً للحكم أو لإدارة الأعمال على ان الذي بنى الطارمة هو ابو يحيى بن مطروح لا ابو يحيى اللحياني .

٢ ـ النائب : المنهل العذب ص ١٤٥ .

يغير مما انتهينا إلى احتماله من أن تاريخ بنائها يعود إلى أبي يحيى بن مطروح وليس إلى غيره. فالنائب قد رجع ولا شك في روايته إلى مصدر ثان أخذ عن أحد المصدرين المذكورين.

أما المسجد الأعظم الذي سيرد ذكر له في معركة الدفاع عن طرابلس ضد الإسبان فيقول التجاني عنه في رحلته: «... وبين القصبة، وهذه المدرسة المتقدمة[1]، جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بنو عبيد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة وسقفه حديث التجديد وبه منار متسع قائم من الأرض على عمدة مستديراً فلما تم نصفه كذلك سدس وكان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن اسحاق (فيما بين سنة ٣٠٣ و ٣٣٢ هـ) ... وأخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي قال: نقلت من خط القاضي أبي موسى بن معمر أن شكرا المعروف بالصقلي بتنى الماجل الذي بجامع طرابلس من الجهة الجوفية والقبة التي عليه في سنة ٢٦٩، وأن خليل بن اسحاق ابتنى المنار الذي به ...»[2].

وهناك الحالة الاقتصادية والأسواق والحمامات والمساجد وغير ذلك من مظاهر العمران كان من الممكن أن نتحدث عنها غير أننا لا نؤرخ

١ – هي المدرسة المنتصرية التي ابتناهـا الفقيه ابو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بعد ابي الدنيا فيما بين ٦٥٥ و ٦٥٨ هـ.

٢ – ص ٢٥٣ و ٢٥٤ من الرحلة، وهذا المسجد قد درس رسمه ويظن أن مكانه حالياً هو جامع احمد باشا وسوق المشير.

هنا لمدينة طرابلس ذاتها وإنما لعهد يبدأ باستيلاء الإسبان عليها ولذلك فقد اكتفينا ـ كما أشرت قبل الآن ـ بمـــا قدمناه حول حصونها وتحصيناتها ومسجدها الأعظم لما لها من علاقة بحوادث يوم الغزو ومعركة الاحتلال .

وقد كنا نود لو أمكن تقديم لمحة عن قوات المدينة البحرية أو البرية غير أن المصادر التي راجعناهـا لم تسعفنا بأي شيء في الموضـوع يمكن الارتكاز إليه والاعتماد عليه [1]. وقد يسعفنا الحظ مستقبلاً بشيء من هذا فنثبته في طبعة تالية بإذن الله .

١ – لقد كانت هناك ولا شك بحرية عربية منذ القرن الاول الهجري غير أن المصادر التاريخية العربية لا تروي أخبار المعارك البحرية بين السفن وانما تذكر أخبار المعـــارك البرية التي قام بها العرب في أراضي ما وراء البحر كايطاليا ومالطا وكريت وردوس وليست هذه بالتي تفيدنا فيما نبحث عنه كما أنها دليل على ان القرصنة ليست من طباع العرب بدليل عدم وجود ما يدل عليها في العربية .

المصادر العربية للغزو الاسباني

لا نجد في المصادر التاريخية العربية القريب عهدها من الزمن الذي استولى فيه الاسبان على طرابلس ، ما يعيننا على فهم دوافع وأسباب ذلك العدوان المسيحي ؛ فكل ما ورد حول الموضوع لا يتعدى رواية شعبية ساذجة تناقلتها ألسن العامة حتى انتهت إلى الرحالة سالم العياشي فدونها في رحلته كما سمعها من ابن ساهل [1] من أهل

---

١ ـ ننقل هنا ترجمته كما وردت في المنهل العذب قال : « الفقيه الصوفي الفاضل . ولد رحمه الله تعالى بطرابلس ونشأ بها ، وقرأ العلوم على غير واحد من أفاضل عصره ، وروى بها واسمع ولم تكن له رحلة . وكان رحمه الله تعالى من الطلبة المخلصين ومن كبار الحفاظ الثقات المحدثين ، زاهداً ورعاً ومن عباد الله الصالحين . قال الاستاذ ابو سالم العياشي في رحلته : « وهذا الشيخ رضي الله عنه من أحسن ما رأينا سمتاً وولاء ، وأصدقهم قولا وفعلا ، له مشاركة في العلوم ، وحسن اطلاع على فروع المذهب، طالت ولايته للفتوى نحو أربعين سنة ، وحمدت سيرته فيها وله مع ذلك ميل قوي لطريق القوم ، وقد أخذ الطريق على ولي الله بلا نزاع ، بين اهل تلك البقاع ، سيدي محمد الصيد وقلت فيه رضي الله عنه :

أسيدنا مفتي الورى ابن مساهل ومنهل فضل فاق كل المناهل
عليك سلام الله ممن غدت لكم عليه أياد في الفصول الأوائل =

طرابلس[1] .

وعن رحلة العياشي نقل ذات الخبر ابن غلبون في تاريخه « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار » كما نقلها أيضاً أحمد بك النائب في تاريخـــه « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب »[2] وعنهما أو عن الأصل الذي استقينا عنه أورد هذه الرواية أو ملخصاً لها من أرخ لهذا العهد من تاريخ ليبيا .

أما هذه الرواية فهي[3] : «فبينما أهل طرابلس في أرغد عيش وأهناه، قد استأثروا مهاد الدعة ، واستطابوا خفض العيش ، وطال نومهم في ظل الغرف والسلم فاستوت الحامية والرعية ، وتشابه الجندي والحضري،

= بنوركيستهدي اذا الارض أظلمت على اهلها بالجهل أهل السواحل
فكم قد انلت العرف سائله وكم مننت بلا سؤل وجدت بنائل
وتوفي رحمه الله تعالى في غرة رمضان سنة ١٠٧٧ ﻫ (١٦٦٥ م) .

١ – ذكر هذا العلامـــة الايطالي المستشرق Ettore Rossi في تعليقاته على كتاب التذكار لابن غلبون والذي ترجمه إلى الايطالية باسم Cronaca Araba Tripolina وفيه قال بالذي قلنا هنا (ص ٦٦ منه) .

٢ – أحد اعيان طرابلس في عهد السلطان عبد الحميد ، وقـــد نشر كتابه لأول مرة سنة ١٨٩٩ بالآستانة ثم اعاد نشره دون مساس به صاحب مكتبة الفرجاني من طرابلس وطبع في بيروت سنة ١٩٦٠ م .

٣ – نقلا عن النائب في المنهل العذب ص ١٩٧ .

إذ قدمت سفن النصارى الإسبانيول[1] تجاراً بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً، فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً ورشها على طعامهم، فبهتوا لذلك، فلما فرغوا قدم لهم بطيخاً أخضر، فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره، إلى أن خرجوا إلى السوق فأتوا بسكين فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم مالكهم عن حال البلد التي قدموا منها، فقالوا: ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً، وأقل سلاحاً، وأعجز أهلاً عن مدافعة عدو، فحكوا له الحكايتين فتأهب للاستيلاء عليها وأرسل أساطيله واستولى عليها وذلك سنة ست عشرة وتسعماية (١٥١٠)».

ومن البديهي أن هذه الرواية - وهي ليست سوى نسج خيال شعبي ساذج - إن أرضت مؤرخي ذلك العصر إلى الحد الذي جعلهم يكتفون بها تعليلاً لمجيء الإسبانيول إلى طرابلس وسبباً لاستيلائهم

١ - انفرد النائب وحده بالإشارة إلى أن السفن كانت اسبانية بينما هي في رواية العياشي وابن غلبون من جمهورية جنوا Genova ، ولعل النائب استطاع العثور على مصادر اخرى مكنته من تحديد جنس الغزاة بدقة فصحح من الرواية بما يتفق والذي علم . بينما اختلط الأمر على العياشي وابن غلبون فظننا النصارى هم من اولئك الذين سبقت لهم مهاجمة طرابلس واخضاعها وهذا رأي العلامة ايتوري روسي في تعليقاته على التذكار .

عليها فإنها لسذاجتها لا ترضينا بل إنها على العكس تدفعنا دفعاً إلى البحث عن الدافع الحقيقي والأسباب المنطقية لهذا العدوان الإسباني على طرابلس في غير المصادر العربية .

ولا يعني هذا أن الرواية لشعبيتها ، ولسذاجتها خالية من الفائدة التاريخية فإنها تصور لنا ولو من طريق غير مباشر مدى البذخ والثراء الذي كانت البلاد عليه في الفترة التي سبقت غزو الاسبان لها واستيلائهم عليها ، كما تسجل مدى شعور سكان مدينة طرابلس بفداحة التقصير في اعداد وسائل دفاعهم عن بلادهم مما أدى إلى غلبة الأسبان لهم نتيجة ضعف الحامية وندرة السلاح . وهما أمران يمكن تتبعهما في المصادر غير العربية ، وفي احداث التاريخ التالية بسهولة . أما مسالة انعدام السكين في منزل المضيف وفي منازل الجيران فهي مبالغة في إبراز انعدام السلاح من المدينة حتى هذه الأداة التي تعتبر من لوازم البيت ولكنها قد تصلح سلاحاً في حالات القتال معدومة من البيوت[1] . وإلا فإن السكين وهي ألزم أدوات المطبخ لا يمكن ولا يعقل أن تنعدم من مساكن الجيران إذا احتملنا عدم توفرها في منزل الداعي لإهمال أو لضياع[2] .

---

١ — ولا يزال المثل يضرب بها لتأدية ذات المعنى فيقال : « فلان ما عنده من السلاح حتى موسى المطبخ » أو شيء قريب من هذا .

٢ — هناك احتمال آخر في تبرير فقدان السكين من المنزل والمنازل المجاورة نقدمه هنا بتحفظ لأنه لو صح لما كان للنتائج التي تصل الرواية إليها أي سند . هذا الاحتمال هو ان السكين قد طلبت ليأكل بها الضيف او الضيوف الذين اعتادوا على استخدامها (مع الملعقة والشوكة؟) =

ففيما يتعلق بثراء ورفاهية المدينة بالإضافة إلى ما ورد في ذات الرواية نجد في رسالة الكونت بدرو نافارو كان قد بعث بها عقب احتلاله المدينة مباشرة (٢٩ يوليه ١٥١٠) إلى نائب الملك في صقلية ما يثبت هذا الثراء وتلك الرفاهية [١] .

وشهرة مدينة طرابلس بالثراء كانت (فيما يقول ايتوري روسي في il Domi Degli Spagnoli Ecc..) آنـذاك منتشرة في شكل اسطوري بين الأوربيين في بلدانهم إلى درجة أن إشاعة راجت عقب انتشار خبر الاستيلاء على المدينة سنة ١٥١٠ مؤداها أن تاجرين في تلك المدينة يملك كل منهما مليون قطعة من الذهب نقداً [٢] . ولا أعتقد أن الرواية الشعبية التي أوردها العياشي في رحلته وتناقلتها أقلام المؤرخين بلغت بوصفها هذه الدرجة من وصف المدينة بالثراء والعظمة ناهيك عن القول باحتمال تجاوزها ومغالاتها في وصف الثراء .

وفيما يتعلق بشعور التنصير في الدفاع عن المدينة والذي تحاول الافصاح عنه في غير صراحة ذات الاسطورة الشعبية بقضية السكين وما انتهت

= على المائدة ولم يعتادوا تناول الطبيخ باليد والفم كما هي عادة الوطنيين حتى زمن قريب ، ومن الطبيعي بالتالي ان لا يعثر عليم في غير السوق .

١ — راجع هذه الفقرة من رسالته في وصف مدينة طرابلس من هذا الفصل .

٢ — ص١٤و١٥ من الكتاب وقد نقلتها عن Martin Sanudo في Diarii ١١ — ١١٢.

إليه من نتيجة على لسان التجار الإسبان في قولهم « ... ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً ، ولا أقل سلاحاً ، واعجز أهلاً عن مدافعة عـدو » . فيمكننا الاهتداء إلى عوامل تكونه أو إحساس الشعب به في نفسيته الاجتماعية إذا مــــا تتبعنا أحداث التاريخ التالية لذات جنود الحملة وأسطولها والفشل الذريع الذي مني بـه قائدها في حملته على جزيرة جربة التي عـاد من مهاجمته لها الى طرابلس يجرجر أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن ترك خلفه بضعة آلاف من رجاله وفقد معظم سفن أسطوله [1] ؛ وجربة التي خذل في مهاجمتها ، ودحر في معركتها ليست في تحصيناتهـــا بخير من طرابلس ذات السورين والخندق والتي تحميها الأبراج العالية المشرفة على المداخل حتى وصفت بانها من أحسن مدن الشمال الإفريقي تحصيناً وأقدرها على صد هجمات الأعداء . فمن الطبيعي ان لا يشعر اهـــالي طرابلس بأنهم صدقوا في الدفاع عن مدينتهم المحصنة بعد ان تبين لهم ضعف عدوهم وانهزامه في معركة تالية على ذلك الشكل المزري . ولا غرابة حينئذ أن ينسبوا عجزهم عن صد العدو ــ وقد مات منهم من مات وأسر أو سبي من سبي وأسر ــ إلى عدم اهتمامهم بتحصين مدينتهم وان اتخذت هذه الفكر ذلك الطابع الاسطوري الشعبي الذي قد يحمل الكثيرين على استبعادها كلية

---

١ ــ ايتوري روسي : المصدر السابق ، ــ ص ٢٤ ــ ٢٥و Rodolfo Micacchi في بحثه الذينشر في .Rinasc. D. Tripolit باسم Tripoli E La Tripolitania Anteriormente All'occupazione Italiana ص٨٤ وآخرون .

من التاريخ .

على أن إشارة عابرة في إحـــدى الروايات التي وردت لتصف معركة احتلال المدينة قد تفصح لنا عن صحة الواقعة التي روتها الكتب العربية ؛ هذه اللمحة العابرة نجدها في وصف نسب لمجهول وتقول : « ... وصلت سفن الأسطول الإسباني الى مياه طرابلس يوم ٢٤ (يوليه) فلما بدت مبانيهـــا أرسل الكولونيل جيرو لاموفيانيلو Girolamo Vianello من البندقية Venezia ليحـــاول الحصول على معلومات عن تحصينات المدينة ولمعرفة ما اذا كانت سفن العثمانيين قد سبقتهم الى المدينة ، وكان هذا الكولونيل قد سبق له أن جاء طرابلس كتاجر ، وأنه يعرفها جيداً ... » [١] فما دام هذا الكولونيل البندقي قد سبق له المجيء الى طرابلس كتاجر ، وما دام على معرفة بأهلها وبالتالي فأهل البلد على معرفة به كتاجر ، وما دام أخيراً قد جاء كأحد كبار الضباط في جيش الغزو الإسباني فإن الرواية التي وصفناها بأنها خيال شعبي ساذج لا تصبح كذلك فمن الجائز أن هذا الكولونيل قد وجهت له الدعوة من التاجر الوطني إما لسابق المعرفة وإما على أمل الاستفادة من ذلك مستقبلاً ، واما لمجرد الرغبة في اكرام الغرباء ؛ وبهذا تكتسب قصة العياشي كل عناصر الواقع التاريخي .

---

١ — ايتوري روسي : — المصدر السابق ص ١٦ نقلا عن Martin De Los Heros في ... Historia Del conde Pedro Navarro(الأول ص ٤٧٩ — ٥٨٢) .

وهكذا نجد الرواية العربية أو التبرير العربي للغزو الاسباني ينظر اليه فقط من الزاوية المحلية نظرة ينقصها الشمول والربط ببقية أحداث الشمال الافريقي التاريخية وهذا لا يعد عيباً في الرواية فإبن طرابلس انما يهمه من الأحداث ما يتصل به وبتاريخه فيما يرويه مشافهة وسماعا (وهو المصدر الأول للرواية) وليس هـذا بشأن المصدر المقابـل والذي تتصل أحداث تاريخـــه بالغزوة في مجموعهـا من وهران حتى جربـة بعد طرابلس فهو إنما ينظر اليها نظرة الشمول بحـــكم موقعه منها وموقفه فيها ودوره والعدالة في الحكم تقتضي منا تقدير الموقفـــين واعتبار النظرتين .

الغزو الإسباني في المصادر غير العربية

المصادر التي رجعنا إليها في هـذا الفصل من التاريخ لا تعود إلى نفس العصر ، وليس معنى هذا أن المصادر التاريخية التي تعود الى ذلك الزمن معدومة وانما فقط لأننا نجهل اللغـة التي كتبت فيها من جهة ، ولأننا لم نتمكن من الحصول على ما نقل منها إلى لغة نفهمها كالإيطالية من جهة أخرى .

ولقد اكتفينا ــ مضطرين ــ في بحثنا هـذا بالمصادر الحديثة التي تناولت تاريخ تلك الفترة بالذات لأن هذه المصادر قد استقت معلوماتها عن مصادر معاصرة للحادث أو استمدتها من وثائق تعـود الى ذلك العهد . وسنشير الى مراجعهم تلـك ناقلين عنهم ، ومعتمدين في الاشارة اليها عليهم ، وذلك رغبة منا في أن نقدم للقارىء المتعمق والباحث المدقق فرصة مراجعة المصادر الأولى متى سمحت له ثقافته ووقته واسعفه الحظ بالوقوف عليهـا للرجوع فيها الى تفصيلات أدق تمكنه من نظرة أعمق .

والمصادر التي رجعنا اليها واعتمدنا عليها تذهب مذهبنا وترجع بهـذا الحادث الى الصراع بين المسيحية والاسلام في غربي حوض البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأندلس، والى نهضة البحرية المسيحية في اسبانيا وغيرها من بلاد اوروبا وتجعل من امر استيلاء الأسبان على طرابلس حلقة في سلسلة حوادث الصراع الذي امتد قروناً بين النصارى والمسلمين واشتهر بالحروب الصليبية لاتسامه بطابع الدين وأسلوب القرصنة والغزوات البحرية الخاطفة، وهو السبب الذي لا يعثر الباحث المدقق على غيره متى مـا ربط أحداث تاريخ المنطقة ببعضها ؛ فما كان مجيء الاسبان الي طرابلس واستيلاؤهم عليها بدافع توسع استعماري يشبه ذلك الاستعمار الأوربي الحديث على الأقل، ولا كان بدافع الكشف الجغرافي كبعثة كريستوف كولومبس أو فاسكو داجاما ، ولا كان أيضاً بدافع الرغبـة في السيطرة على الأسواق المحلية واحتكار التجارة فيها لصالح الاسبان دون غيرهم كما يحلو للبعض أن يقول عنه متناسياً أن هذا الاتجاه في تبرير السيطرة الاستعمارية لم يعرف آنذاك وإنما كان مجيئهم إليهـا واستيلاؤهم عليها لاتخاذها قاعدة أمامية تلجأ اليها وتحتمي بها وبمينائها الحصين مراكب وسفن قراصنة الأسبان وبقية الشعوب المسيحية .

يؤكد هذا اهتمامهم بتحصينها ، والمحافظة عليها ، وتصرح به بعض مصادر الاسبان المعاصرة ذاتها ؛ كما يؤكده أيضاً تخليهم عنها لقوة مسيحية

اخرى (فرسان القديس يوحنا ـ فرسان مالطا) كان الاسبان يرونها اقرب منهم صلة بقرصنـة البحر المتوسط واكثر اتصالاً بالصراع بـين القوتين لا سيا وقد تحولوا هم عن الشرق الأدنى . كما يؤكده انصراف قوة الفرسان الصليبيـة التي خلفتهم في السيطرة على هـذه القـاعدة الى الاستمرار في تحصينها وفي تقوية حصنها وبذلهم في سبيل ذلك الكثير من الجهد والمال على شدة حاجتهم الى الاثنين معاً في غير ذلك من الميادين والأعمال . بل ما لنـا ولهذا جميعه ورسالة فرديناند ذاتـه الى الكونت بدرو نافارو تقول « .... واعتقد حسبما اعلمتموني في عدة مناسبات ، أنه اذا اردنا الاستقرار في افريقيـا ينبغي ان نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس . واذا آلت الأخـيرة الى أيدينا يجب أن نسكنها باكملها بالمسيحيين لأن المغاربة (المور) هم اصحاب كل ما تبقى من البلاد ، واذا سمحنا لهم بالاقامة في مدن السواحل فلن نتمكن من الاحتفاظ بممتلكاتنا زمناً طويلاً . ويجب أن تكون الأماكن الثلاثـة ، اذن ، وانتظاراً لما هو احسن ، محفوظة بحماية قوية بين المسيحيين ولا يسمح لأي عربي بالدخول اليها .. »[1] أي تعليل لمدن يحتلها الاسبان لتسكنها حامية منهم دون العرب الذين يجب أن لا يسمح لهم حتى بالدخول

---

١ ـ عمر البـاروني : الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ص ٢٩ ـ ٣٠ . نقل الرسالة عن Charle Feroud فيما يقول .

إليها اذا لم تكن هذه المدن الساحلية قواعد بحرية للقراصنة من المسيحيين ؟ وأي معنى قصده فرديناند من عبارته « انتظاراً لما هو أحسن » لا يعني الا أمله في الحصول على قواعد أمامية أقرب منها الى الشرق حيث الأسطول العثماني وثغوره الحصينة .

حملة الغزو الاسبانية

ما إن تم للاسبان طرد المسلمين من الأندلس حتى واصلوا المطاردة المسيحية لهم من طريق محاولة السيطرة على ثغور جنوب حوض البحر المتوسط الغربي ؛ ففي سبتمبر من سنة ١٥٠٥ احتلت قواته ميناء المرسى الكبير ، وفي سنة ١٥٠٩ (١٧ مارس) احتل بدرو نافارو مدينة الثغر « وهران » وفي ٥ يناير من العام التالي (١٥١٠) احتل بقواتـــه مدينة الثغر « بجـاية » ، ثم شرع في الاستعداد لاحتلال مدينة الثغر « طرابلس » والتي سيتم للاسبان بالاستيلاء عليها السيطرة على سواحل الجنوب للحوض الغربي .

وحملة الغزو الاسبانية على طرابلس تختلف عن حملاتهم على هذه المدن في أن القوات الاسبانية لم تقم بها بمفردها كالأخريات وانما أشركت فيهـا قوات إيطالية وجعلتها تحت رعاية نائب ملك صقلية ، وهو ما لم تفعله في غزوها للمدن الأخرى .

وفي الرسالة التي سبق أن أشرنا اليها فقلنا بأن الملك فرديناند قـــد

أرسلها الى الكونت بدرو نافارو[1] نجد ذكراً لنوع من الاستعدادات لهذه الحملة اذ أنها كما أوردها الباروني تقول :

« الى الكونت بدرو نافارو قائدنا العام ومستشارنا ،

« استلمت رسائلكم الثلاث المؤرخة في ٣ مايو والتي بعثتم اليّ بها عن طريق بلنسية كما استلمت الرسالة الأخرى المؤرخة في ٥ المذكور والتي سلمها اليّ كبير يا وران قصرنا ميجول كابريرا Miguel Cabrera ، وقد أمرت أن يكتب الى الونزو سانشيز Alonzo Sanchez حتى يطحن باسرع ما يمكن ألف كيس من القمح بمملكة بلنسية كانت ارسلت هناك ، وعليكم أن تبعثوا بها الى بجاية ، وستستلمون أيضاً كمية من البقسماط (الخبز المجفف) المصنوع من هذا الدقيق كافية لتموين ثمانية آلاف رجل مدة خمسة عشر يوماً . وبما أن المواد الغذائية ليست متوفرة في هـــذا الوقت ببلنسية فقد كتبت الى خازن أموال مالقا Malàga وفرقاس Vargas أطلب منه أن يرسل اليكم حـــين وصول رسالتي اليه وبدون تردد كل المئونة التي يمكنه التصرف فيها ، واضعاً في ذلـــك كل عنايته ، كي تتزودوا بها وقـت الحـاجـة ، ويكون في استطاعتكم السفر الى (طرابلس) . كما أني أمرت الخـازن المذكور أن يرسل اليكم عشرة آلاف دوكات ، وعند وصولكم الى صقلية ان شاء الله ستجدون كل ما انتم في حاجة اليه وتتمون تزويدكم اذ ان نائب ملك صقلية كتب اليّ

---

١ - في مايو من سنة ١٥١٠ ونقدمها هنا في نصها الكامل .

يخبرني بأن كل شيء جاهز لهذا الغرض[1] » .

« . . . . » [2]

« والمهم اتباعه في عقد المعاهدة مع ملك بجاية او اي معاهدة أخرى ترون عقدهـا ، هو مسألة التموين ، اذ يجب ان نعتمد على منتوجات البلدان المحتلة في حاجياتنا بافريقيا ،لأنه قد يصبح من المستحيل استجلاب حاجياتنا من اسبانيا وحدها لمدة طويلة ، فنفقد بذلك ثمار ما اكتسبناه بمجهوداتنا الحـالية ؛ لذلك يهمنا ان تنظم المسائل بكيفية تمكننا من الاحتفاظ بالأماكن التي وضعنا عليها ايدينا دون ان نكون مرغمين على تزويدها من الخارج كما فعلنا حتى اليوم ، وفي المستقبل لا ينبغي الا ان ندبر النفقات الضرورية والمساعدة بالجنود والسفن اذا ما دعت الظروف الى ذلك » .

فرديناند[3]

والذي يبدو من فحوى الرسالة أنها لم تكن الوحيدة فقد اشارت الى عدد من الرسائل الأخرى التي تدور حول الموضوع ،وهذه انما تعرضت لمشكلة تموين جند الحملة والتدبيرات التي اتخذت لحلهـا والاحتياطات

---

١ – من هذه الفقرة نستطيع أن ندرك ان هناك تفاهماً بين الملك فرديناند ونائب الملك في صقلية سابق لهذا التاريخ ، وان ترتيبات قد اتخذت لإعداد الحملة وتموينها .

٢ – الفقرة التي سبق لنا ايرادها . ثم :

٣ – عمر الباروني، الاسبان وفرسان القديس ... ص ٢٩ – ٣٠.

التي يجب على بدرونافارو اتخاذهـا في المستقبل لضمان استمرار التموين بطرق أيسر من امدادها من اسبانيا ذاتها أو من ايطاليـــا الى جانب الاحتياطات العسكرية التي يجب اتخاذها لحماية هذه القواعد البحرية كعدم السماح للعرب بدخولها أو التجول فيها ناهيك بسكناها .

والذي يبدو ان بدرو كان يتوقع مثل هذه الترتيبات اذ نراه يبحر في السابع من يونيه ١٥١٠ من بجاية الى جزيرة في صقلية (فافينياني جزيرة صغيرة تقـــع جنوب غرب مدينـة تراباني من صقلية) بأسطوله وعلى متنه ثمانية آلاف جندي تاركاً في بجاية حامية لحراستها والدفاع عنها .

وفي هذه الجزيرة الصغيرة مكث في انتظار بقية سفن مملكتي نابولي وصقلية وجندهما الذي سيشترك معه في الحملة على طرابلس [1] ولم يبحر منها الا في الخامس عشر من الشهر التالي (يوليـــه) وفي طريقه الى طرابلس عرّج – حسب الخطة ؟ – على قوزو Guzo احدى جزر مالطة حيث اصطحب عدداً من الأدلاء المالطيين الذين « لهم معرفة سابقـــة بطرابلس ، وخبرة بسواحلها [2] » وتولى الخبرة بالحملة جوليانو ابلا Giuliano Abellla كما انضم الى سفن الحملة خمسة مراكب من مالطة وبهذا

---

١ – ايتوري روسي : – المصدر السابق ص ١٢ نقـــلا عن Mar. De Los Heros في Historia Del Conde Pedro Navarro ص ١٤٢ .

٢ – ايتوري روسي :– المصدر السابق ص ١٢ نقلا عن Sandoval (مؤرخ الحملة ؟) في Vida Y Echos Del Emeperador Carlos Quinto. CAP: 36.

أصبح عدد سفن الحملة ١٢٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة على متنها خمسة عشر الف جندي اسباني وثلاثة آلاف من الايطاليين ومن المغامرين الأوربيين . وفي صباح الخميس الخامس والعشرين من شهر يوليه ذاته داهمت مدينة طرابلس واحتلتها [١] .

---

١ - ايتوري روسي - المصدر السابق ص ١٢ نقلا عن M. Longhena في : L'impresa Di Tripoli eNl 1510 مقال نشر في مجلة افريقيا (يناير - فبراير ١٩١٢) ص ٤ .

مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها

وحتى هنا لا تكاد المصادر العربية تمدنا بشيء يفيدنا في تفهم تفاصيل مجريات الأمور . فرواية أحمد النائب في المنهل العذب لا تزيد عن : « ... وأرسل اساطيله واستولى عليها وذلك سنة ست عشرة وتسعماية (١٥١٠) ، ولم ينج من اهلها الا من تسور ليلاً ، وانحاز المسلمون الى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة ، وصارت المدينة للنصارى » . [١] أما رواية ابن غلبون في التذكار فلا تختلف عن رواية النائب السابقة الا في الاشارة الى ان الاستيلاء عليها كان ليلاً ودونما كبير عناء ، وفي الإضافة التالية « ويقال ان دخولهم للمدينة كان بتدبير بعض السكان والله يعلم بحقيقة ما جرى » [٢] وليس اي الروايتين بالتي تقنع الباحث وتشبع نهمه او ترضي رغبته في الإحاطة بما حدث خلال الغزو واثناء الاستيلاء من

---

١ – احمد النائب : – المنهل العذب ص ١٩٧ – ١٩٨ .

٢ – ايتوري روسي : ترجمته لكتاب ابن غلبون : التذكار ص ٦٧ (ص ٩٣ من طبعة القاهرة العربية) .

مقاومة عسكرية او شعبية لهذا الاحتلال[١] .

ومرة أخرى تسعفنا المصادر غير العربية في الموضوع بما تقدمه لنا من معلومات دونت أما عن قائد الحملة ذاته او عن اناس آخرين اشتركوا في الحملة او عاصروها ، الأمر الذي يجعل لها اهمية تاريخية خاصة في الموضوع . وتختلف هذه الروايات مع المصادر العربية في تقدير مـــدى مقاومة الوطنيين ودفاعهم عن مدينتهم ضد الاسبان الغزاة، كما تقدم لنا في نفس الوقت تفصيلات دقيقة (نسبياً) عن المعركة منذ بدايتها الى حين تمام الاستيلاء عليها .

في تقرير نسب لمجهول كان قد شارك في حملة الغزو بين المسيحيين جاء ان الأسطول أشرف على المدينة يوم ٢٤ من شهر يوليه ، وفي نفس اليوم ارسل الكولونيل جيرو لاموفيانيلو من البندقية، كان قد سبقت له رؤية طرابلس كتاجر ولذلك فهو على معرفـــة بالمدينة ، ليحصل على معلومات عن الوضع في المدينة وليرى ما اذا كانت قد وصلت نجدات اليها من الأتراك[٢] . وتحت ستار مدفعية الأسطول تم إنزال قوات الحملة

---

١ ـ لعل في رواية ابن غلبون التي تقلل من شأن الدفاع عن المدينة بما تنتهي به من احتمال وجود خونة متآمرين مع العدو في صفوف المواطنين كانوا سبباً في تسليم المدينة إلى الاسبان ما يقدم لنا دليلاً آخر على شعور المرارة بتغلب المسيحيين على طرابلس في الوقت الذي فشل هؤلاء في الاستيلاء على جزيرة جربة وهو امر سبق ان اشرنا إليه .

٢ ـ وقد سبق لنا الاشارة إلى هذا الاستطلاع في مكان آخر من هذا الفصل .

الى البر [1] في يوم الخميس ٢٥ يوليه (عيد سان جاكومو المقدس عند الاسبان) باستخدام سفن صغيرة وقوارب ،ثم اعدادها لذلك منذ الليل، في جنوب شرق المدينة . وقبل ظهر ذلك اليوم كان هناك ستة آلاف جندي بمدفعيتهم قد اتخذوا اهبتهم للقتال تحت قيادة ثمانية ضباط برتبة كولونيل؛ ومن المحتمل ان تكون المنطقة التي انزلوا فيهـــا كانت ساحل الشعاب بالذات [2] .وهنا تتضارب الرواية بين هذا المصدر الأخير ورواية التقرير. فبينما يقول التقرير إن انزال الجنود تم على الرغم من مدفعية أبراج المدينة الحامية لا يشير برنيا إلى هذه النقطة بل ويذهب إلى القول بأن عشرة سفن حربية(Galere)اقتربت حتى انتهت الى قرب جدران الحصن (القصبة) واسوارها المقابلة للبحر وانها شرعت في دكها بمدفعيتها وفي ذات الوقت كانت مدافع الفرق البرية تقصف المنطقة وتمهد الطريق لتقدم الغزاة في اتجاه الأسوار . وتحاول دك اسوار المدينة من جهة الجنوب [3] . ونحن اميل الى تصديق رواية الأب برنيا من تصديقنا لرواية التقرير: اولاً لأن ما من اشارة اخرى عنده ، ولا عند غيره من معاصري الرواة الى مدفعية الحصون او القصبة في اية مرحلة من مراحل المعركة . وثانيـاً لو انه كانت لدى

---

١ – نشر هذا التقرير فيما يقول ايتوري روسي في ... Il Dominio Del Sp الذي نقلنا عنه مارتين دي لوس هيروس .Historia Del Con De Ped. Nav الأول ص ٤٧٩ – ٥٨٢) .

٢ – P. Costanzo Bergna : - Tripoli dal 1510 al 1850 p. 20

٣ – ايتوري روسي : ـــ المصدر السابـــق نقلا عن هيروس في الذي ذكر له ص ١٧ وبرنيا في المصدر السابق ص ٢١.

المدافعين مدفعية لاستطاعت حماية اسوارها من الغزو لفترة اطول مما حدث . وثالثاً لو كانت لها هذه المدفعية لتمكنت من اغراق ولو سفينة واحدة من العدو وهو ما لم تشر اليه اية رواية ، خاصة وان السفن قد اقتربت كثيراً حتى تمكنت من دك جانب كبير من سور المدينة مكن الجند من ولوج المدينة عن طريق ما احدثته المدفعية من ثغرات . ورابعاً لو ان المدافعين كانت لهم هذه المدفعية لذكرت الروايات خبر الاستيلاء عليها وهي التي تعرضت لما هو اقل اهمية من اسكات هذه المدفعية ومن الاستيلاء عليها .

اما رواية بدرو نافارو في رسالته فتقول ان الغزاة تمكنوا في بضع ساعات من انزال ستة آلاف مقاتل قسموا الى قوتين هاجمت احداها اسوار المدينة وانصرفت القوة الأخرى الى صد محاولات عرب الدواخل عن نجدتها . اما الأب برنيا فيضيف الى ما تقدم قوة ثالثة نزلت في موضع لم يحدده المؤرخون كانت مهمتها حراسة القوتين من اي كمين قد يفاجئهم العدو به . اما الراوي المجهول الذي سبقت الاشارة اليه فقد ذكر أن قوة الغزاة قد جزئت الى فريقين : الأول من اربعة فيالق كل منها يكون الف رجل يقودها Diego Pacheco و Joanes De Arriaga, و Juan Salgado, و Avila وقد كلفت بمهاجمة العرب الذين في خارج المدينة . اما الثاني فيكون الباقي وهم الأحد عشر ألف رجل[1] فقد هاجم المدينة محاولاً تسلق

١ — الذي نعلمه من الروايات المختلفة ان عدد رجال الحملة كانوا خمسة عشر الف جندي اسباني وثلاثة آلاف رجل من ايطاليا وشذاذ الآفاق المسيحيين الذين وصفوا بالمغامرين . وهذا يعني ان هناك من مجموع الحملة هذا العدد الأخير لم يكون قسماً من اي من الفريقين ، ولعل =

الاسوار [1]. وهكذا نجد الروايات الثلاث وان اختلفت في بعض التفاصيل إلا أنها قد أجمعت على أن المدينة قد هوجمت من البر ومن البحر بقوة لا قبل لأهل المدينة لها إلا بالتحصن وراء الأسوار وعلى ان القوات الغازية قد احتاطت لنفسها بمنع اية امدادات عن المدينة او نجدة من السكان .

ويقول بدرو نافارو في رسالته بعد الذي تقدم منها : إن المهاجمين تمكنوا بمؤازرة مدفعية البحرية من الاستيلاء على جانب من السور وعلى برجين ثم تمكنوا عقب ذلك من البرج الذي يعلو « باب العرب » [2]. وما إن سيطروا عليها وفتحوها حتى تدفق الأسبان الى شوارع المدينة حيث كان الطرابلسيون يدافعون عنها دفاع المستميت . أما رواية باتستينودي تونسس Batistino De Tonsis وهو شخص شارك في الحملة فتقول إن الذي اقتحم « باب العرب » كانت القوات التي هاجمت المدينة من البر ، وأن المسيحيين تدافعوا نحو البـــاب كالطيور يقاتلون ويقتلون الاعداء بينما استمرت المقاومة والقتال عند باب البحر مما دفع قوادهم إلى تأنيبهم على

= هذا هو ما حمل الأب برنيا على القول بالقوة الثالثـــة التي نزلت في الموضع الذي لم يحدده المؤرخون .

١ — رجعنا الى ايتوري روسي في رواية بدرو نافارو (ص ١٣) وفي رواية الشاهد المجهول (ص١٦ – ١٧) والى الأب برنيا في روايته (ص ٢١) من كتابيها المذكورين .

٢ — في الاسبانية Porta De Los Alarbes اي الباب الذي يصل بين العرب وسكان المدينة ويحتمل ان يكون « باب الحريـــة » او « باب المنشية » (راجع S. Aurigemma في Le Fortificazion Di Tripoli مقال نشر بمجـــلة Not. Arch. Ministero Colonie الثاني ص ٢٥٧) .

تقاعسهم في التمكن من الاسوار ومن اقتحام المدينة في الوقت الذي نجح فيه رجال قوات البر من التغلب على المقاومة والدخول إلى المدينة فاندفعوا في قوة يدفعهم الخوف والحياء، وتمكنوا من تسلق الأسوار وتدفقوا إلى المدينة من كل جانب وحمي وطيس القتال في كل شارع من المدينة وكثر القتل في الوطنيين بكل قسوة ووحشية [١]. وأما رواية الاب برنيا في كتابه فتقول: دار القتال من البر ومن البحر وكان العدو المحصور داخل الأسوار يدفع المهاجمين بالحجارة والمياه الفائرة والنبال والنار الفارسية؟ بينما كان المهاجمون يحاولون تسلق الاسوار بالسلالم وغايتهم باب المنشية المزدوج وباب الحرية القريب منه. وقد دام الهجوم وصده أربع ساعات كاملة قبل أن يتمكن الأسبان من الوصول إلى الأسوار ومن فتح الأبواب التي تدفقت منها كالسيل العارم عبر الشوارع تقتل وتمثل بالطرابلسيين الذي كانوا يبدون مقاومة عنيفة في كل مكان. ولا مكان لقدم (في الشوارع والميادين) إلا على جثث القتلى. ويتفق في بقية الرواية المتعلقة بالمقاومة الشديدة عند باب البحر وعلى طول السور المواجه للميناء وتقريع القواد والتغلب في النهاية على العدو واكتساح الاسوار. ثم يضيف أن التقاء الفريقين المهاجمين على العدو دفع به إلى آخر معاقله القصبة (ويسميه الحصن) والمسجد الأعظم حيث اشتدت مقاومته وامتدت ثلاث ساعات قبل أن يتمكن

---

١ – مقال M. Longhena : - L'inpresa Di Tripoli Nel 1510 نشر في مجلة : R. d'Africa يناير فبراير ١٩١٢ ص ٧ . (نقلنا عن اتوري روسي في المصدر السابق) .

المسيحيون من اقتحامه . وفي هذا تتفق جميــع الروايات التي ذكرنا باستثناء الزمن الذي ينفرد برنيا في القول به .

وتجمع كذلك على أن شيخ المدينة (حاكمها)[1] الأمير عبدالله وعائلته وأخوه . وعلى أن القتلى من المسلمين كان حوالي خمسة آلاف (شهيد) وأن الأسرى اكثر من ستة آلاف مـــا بين رجل وامرأة وطفل من العرب واليهود ، أما من نجا من سكان المدينة من القتل أو الأسر فقد تسور السور عنـد (حارة) اليهود الواقعة في شمال المدينـة . ولا يشذ عنهم سوى صاحب الرواية المجهول فقد ذكر أن قتلى القصبة والمسجد الأعظم وحدهما قد تعدى الألفـين وان الأسرى كانوا حوالي عشرة آلاف وأن الأسرى المسيحيين الذين أطلـــق سراحهم في القصر كانوا ١٧٠ شخصاً بينما يتفـــق الآخرون على أن العدد كان ١٥٠ أسيراً مسيحياً فقط .

وبالاستيلاء على الحصن أو القصبة وبأسر شيخ البلد (حاكمها) وبقية سكانها وحاميتها استولى القراصنة الأسبان على المدينة وتم لهم السيطرة عليها . وتعلمنا رواية أخيرة من صقلية أن الأسرى قد أوفدوا إلى تلك

---

(١) الشيخ عبدالله عرف بالمرابط فيما تقـــول المصادر غير العربية اما عمر الباروني فقـــد ذكران اسمه عبدالله بن شرف تولى حكم طرابلس سنة ١٤٩٢ واشتهر بالاستقامة في حياته وفي حكمه كما امتاز بتسامحه مع تجار اوربا ولا سيما الايطاليين .

الجزيرة (مسينا بالذات)، وكتب قنصل البندقية في باليرمو بتاريخ ٣ سبتمبر ١٥١٠ إلى حكومته يعلمها عن وصول ١٤٠٠ أسير من الطرابلسيين إلى صقلية وأن الأسرى بيعوا كرقيق في الأسواق بسعر يتراوح ما بين ثلاثة وخمسة دوكات بالمزاد العلني، وينتظر وصول أسرى آخرين خلاف هؤلاء . أما شيخ المدينة وأهله فقد بقوا في الاسر عدة سنوات ولم يبع مع الأسرى كرقيق ، ثم أطلق سراحه في آخر عمره فيما تقول الرواية الايطالية ، حيث عاد إلى طرابلس . وينفرد الأب برنيا بالاشارة إلى أن يهود إيطاليا قد افتدوا بني جنسهم من أسرى طرابلس اليهود .

ولعل في هذه الرواية الأخيرة ما يفصح عن طبيعة الحرب التي كانت المسيحية تشنها على الإسلام وإلى أي مدى بلغت القرصنة المسيحية في وحشيتها وتعصبها الديني ، وبأية طريقة طبقت تعليمات الملك فرديناند الكاثوليكي في وجوب اخلاء المدينة من السكان وعدم السماح لهم بسكناها. إن الإسلام الذي يتهم أهله بالتعصب الديني ظلماً وزوراً لم يعتبر سكان المدن التي افتتحها وفي أي عهد من عهوده – أهل المدن والقرى – أسرى حرب بالجملة ولا ساقهم سبياً إلى الأسواق مخلياً المدن من ذويها ، لا ولا هو فرض الإسلام عليهم مقابل البقاء في مساكنهم أو الطرد من ممتلكاتهم ، كما فعل فرديناند ، بل إن ما يعرف عنه وعن قادته أنهم احترموا الكنائس والأديرة واحترموا حرية العقيدة فتركوا المسيحي على دينه واحترموا مقدساته وليس هذا الذي تجمع عليه الروايات من قتل حوالي الألفين في

مدى ثلاث ساعات داخـل المسجد الأعظم اقدس مقدسات العرب المسلمين باعتباره وغيره من المساجد بيوت الله التي يذكر فيها اسمه ـ ومن أسر جميع سكان المدينـة الذين لم يقتلوا ولم يفروا من المدينة وبيعهم رقيقاً في أسواق أوربا بالمزاد العلني بابخس الأثمان مما ارتكبـه العرب المسلمون لا ضد المسيحية ولا ضد غيرهم من الشعوب والامم. ولا أعتقد أن علينا أن ندفع بالتبرير حروب القرصنة، فقد كانت أوربا وقراصنة أوربا احق منا بدفع التهمة بالتبرير أما نحن كعرب فقد كانت بالنسبة إلينا مجرد فريـة من كذبات التاريخ الكبرى التي عملت الحضارة الاوربيـة على نشرها ضد حضارتنا وتاريخنا ومحض تهمة ألصقت بنا زورا وبهتاناً لا سند لها من حقيقة إلا بالصمت المطبق عن مقترفات الطرف المقابل لأنها مع ابراز موقف الطرفين من قضيـة التعصب الديني ومن قضية القرصنة لا نجد العرب المسلمين الا معاملين بالمثل وفي حالة الدفـاع عن النفس والذود عن الحياض فهي حالة حرب ليس الواحد منهم فيها غير آكل أو مأكول[1]، طيلة فترة الصراع الذي امتد زهاء الثلاثة القرون.

---

١ ـ وليست عملية ضغطنا على هذه النقطة تعصباً ولكنها نقطة بداية لمرحلة صراع مرير بين القوتين الدينيتين في هذه المنطقة امتد معظم الفترة التي نؤرخ لها في هذا الكتاب. وليست حجتنا في رد التهمة إلى ذويها والذنب إلى مرتكبيه هي بيـع سكان المدينـة باطفالها وشيوخها ونسائها بالجملة حتى أقفرت المدينة طوال ثمانية أعـوام باعتراف المصادر المسيحية ذاتها من اي ساكن مدني. فإلى جانب هذه الوحشية التي نضيفها إلى قسوة اخراج جميـع المسلمين عن الأندلس نجد موقف التسامح الـكامل الذي يقفه سليمان القانوني سنة ١٥٢٣ من فرسان القديس يوحنا يوم تم اخراجهم من رودس التي احتلها بعد حصار دام ستة اشهر : لقد رضي بأن يتركهم يبحرون بسفنهم عن آخر معاقلهم بالجزيرة في الوقت الذي كان له كامل الحق في اسرهم وبيعهم رقيقاً لا باعتبارهم =

أما ما تقوله الرواية العربية من قلة الدفاع عن المدينة واحتمال الخيانة فيها فأمر تنفيه المصادر غير العربية بما ترويه من تفصيلات المعركة ومدى ما ذكر فيها من مقاومة شديدة أبداها الوطنيون . وكفى أهل طرابلس دفعاً لتهمة الخيانة والتفريط أن يسقط نصف عددهم في الدفاع عنها خلال معركة واحدة لم تدم غير سبع ساعات (اربع عن الاسوار ، وثلاث عن القصبة والمسجد الاعظم) ؛ أمر واحد يلفت النظر هو كثرة الضحايا من الوطنيين وقلة القتلى من الغزاة . واذا كانت عادة الرواة في التاريخ أن يقللوا من موتى الفريق الذي ينتمون إليه أو يتحزبون له وفي الوقت نفسه يغالون في الاكثار من قتلى الجانب المقابل أو الاعداء فان ٣٠٠ إلى ٥٠٠٠ قتيل قد تكون مفهومة لو كانت بنسبة أكثر في الحالة الاولى وبنسبة أقل في الحالة الثانية منهما . غير أننا مع هذا نحتمل كثرة القتلى في صفوف المدافعين للاسباب التالية :

أولاً : التفاوت في السلاح بين الفريقين .

ثانياً : التفاوت في مدى خبرة كل منهما بأساليب القتال ، فأهل طرابلس مدنيون مسالمون أو حامية كانت مهمتها حفظ الامن وحراسة الممتلكات ، أما الغزاة فجند كمل تدريبهم وقد خاضوا قبل هذه عديداً من المعارك الحربية واستولوا على اكثر من مدينة .

= رجال دين فقد كانوا قراصنة بحار ،ولا باعتبارهم مدنيين فقد كانوا حاملين للسلاح...ولو فعل لما كان في هذا ما يعاب عليه، ولكنه التسامح الإسلامي المتعالي عن التعصب المسيحي .

ثالثاً : انعدام القيادة لدى المدافعين وتوفرها لدى الغزاة مع الحنكة وطول المران .

وهي فروق قللت ولا شك من عدد القتلى بين الغزاة وزادت من عدد الضحايا بين المواطنين ، ولكن بنسبة لا يمكن أن تصل هذا التفاوت الكبير في العدد لما نعلمه من تعرض الغزاة في محاولات تسلق الاسوار للقتل أكثر من تعرض المدافعين عن هذه الأسوار والحصون .

ومهما يكن من أمر قتلى الفريقين فقد انتهت المعركة بسقوط طرابلس في يد الإسبان مساء يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر يوليه سنة ١٥١٠ م وبهذا يبدأ عهد في تاريخ البلاد جديد له ميزاته الخاصة والتي ستؤثر في أحداث تاريخها لفترة طويلة من التاريخ .

* * *

القسم الثاني

الأسبان يحكمون طرابلس

يوسف

صدى الاحتلال الاسباني

من الطبيعي جداً أن تكون مصادر العهد الاسباني في طرابلس الذي تكون أحداثه مادة هذا الفصل ، ومصادر عهد فرسان القديس يوحنا أو فرسان مالطا في طرابلس ، والذي تكون أخبار أحداثه الفصل الذي يلي هذا، غير عربية في أغلبها لأسباب لا تخفى على المتخصص في التاريخ ، ولذلك فسيكون جل اعتمادنا فيهما عليها مع ملاحظة أنها باعتبارها مصادر معادية ومن جانب واحد لا يحق لباحث أن يطمئن إليها إلا مع التحليل والاستقراء المنطقي المعقول لما يرد فيها من أنباء .

أما عن صدى هذا الغزو والاحتلال المسيحي لهـــذه المدينة التي اعتبرت في ذلك الزمن من أهم مدن الشمال الإفريقي الإسلامية فقد كتب ابناء العصر متحدثين عنه في العالمين الإسلامي والمسيحي معاً . ومن هذه الكتابات ما رواه M. De Los Heros أن خبر الاستيلاء على طرابلس قوبل بفرح وابتهاج في أوربا المسيحيـة مما دفع ملوك اسبانيا إلى الاهتمام بالحملات الإفريقية ، ويبدو أن الملك الكاثوليكي (فرديناند) قد هم بإعداد حملة يتولى قيادتهـا بنفسه تعمل على التوسع بالامتلاك ، فبذلت

مجهودات جبارة لهذا الغرض في الاندلس في خريف وربيع سنتي ١٥١٠ و ١٥١١ وأن هذه الحملة كانت ستبحر من مالقا ؛ ولكن أحداث إيطاليا صرفت منذ ذلك الحين اهتمام الملك فرديناند عن شواطىء إفريقيا [1].

وهذا الذي يقوله المصدر من رغبة فرديناند ذاته القيام على رأس حملة إلى إفريقيا يحقق بها نصراً يرفعه إلى أرفع مقام بطولي إنما مبعثه صدى الاحتلال الاسباني لمدينة طرابلس. أما انصرافه عن الفكرة فقد يكون ولا يكون مجريات الامور السياسية والتنافس الاسباني الفرنسي على التحكم في دويلات إيطاليا الصغيرة غير أنه مما لا شك فيه أن من عوامل انصرافه عن الفكرة (إن لم تكن هي كل العوامل) ذلك الفشل الذريع الذي لاقته الحملة من بعد ذلك في جربة وفي طرابلس ذاتها ـ على ما سيأتي ـ وخوفه من فقدان نفوذه السياسي والبطولي لو حاقت بجنده هزيمة في إفريقيا وبالتالي تغلب منافسه الفرنسي عليه في كل الميادين .

وقد يكون يخشى من تدخل القوة الشرقية في الصراع فتسحقه الأساطيل العثمانية المتفوقة على القوى المسيحية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .ولو حدث هذا لأدى إلى سيطرتها على الحوض الغربي لذات البحر وما لا يمكن أن يجازف به كمسيحي متطرف في تعصبه .

ومن هذه الروايات أيضاً ما رواه G. Pantanelli من أن الملحق

---

١ ـ وذلك في ص ١٤٢ ـ ١٤٦ من كتابه Historia Del Conde Pedro Navarro

الكنسي في بولونيـــا : فرانشسكو اليدوزي F. Alidosi دعا المؤمنين (المسيحيين) إلى القيام بمظاهرة ابتهاج كبرى من أجل النصر والاستيلاء على « مدينة تسمى طرابلس البربرية أرض مزدحمة بالسكان »[1].

وفي هذه الرواية تتضح النظرة التي نظر المسيحيون إلى احتلال طرابلس من قبل قوات الأسبان وأقل ما توصف به أنها تعكس التعصب الديني المسيحي المتطرف الذي يذهب إلى حمل المسيحيين على الابتهـاج بنصر تحققه دولة أجنبية عنهم في بلاد لا يعرف الداعي عنها إلا أنها كثيفة السكان .

ومن هذه الروايات كذلك ما رواه M. Sanudo في Diarii (الحادي عشر ص ١٢٣) من أن روما احتفلت بالنصر الذي حققه الاسبان في طرابلس بإقامة صلاة الشكر في العاشر من أغسطس .

وهذه الرواية لها ذات مدلول الرواية السابقة وكذلك بقية الروايات عن العالم المسيحي. ونحن لا نستغرب ولا نعيب هذا الموقف على المسيحيين فقد كانوا آنذاك يعانون مركب النقص والشعور بالتفاهة والضآلة أمام القوة الإسلامية التي كانت حتى ذلك الحين متفوقة عليهم كمسيحيين في كل الميادين .

---

١ ـ في Tripoli in un Documento Bolognese Del Secolo XVI

ومن هذه الروايات ما روي عن رسالة « الاستاذ الأكبر لرودس »[1] إلى الملك فرديناند الذي مـــا إن علم بنبإ احتلال مدينة طرابلس حتى سارع بإرسالها ليهنىء فيها الملك بالنصر ويدعوه ليتقـدم بحملاته حتى مصر ليخدم الرب بتوحيد قوتيهما (في الصراع الديني ضد الإسلام) :

Y servir à Dios En Tan Meritoris Impresa[2]

وهذه الرواية الأخيرة بالذات فوق أنها تتفق مع ما سبقها في النظرة إلى استيلاء المسيحية على طرابلس تذهب إلى حد المطالبة بأن يحاول فرديناند الاستيلاء على مصر الواقعـــة في قلب الحوض الشرقي للبحر المتوسط حيث تعاني القوة الصليبية البحرية في رودس الأمرين وتكاد تلفظ أنفاسها فيه . وهكذا نجد العاملين الأساسيين اللذين حددناهما في مطلع الفصل الأول من هذا الكتاب يبرزان في صورتها الكاملة، فالتعصب الديني المسيحي لا يرى في القرصنة البحرية ، والغزو المسلح غير خدمة للرب والقوة الصليبية لا ترى في الاستيلاء على المـــدن والثغور الإسلامية غير تحقيـــق للسيادة على مناطق لا سلطان لها عليها من البحر والبر معاً .

---

١ ـ لقب « Gran Maestro di Rodi » يطلق على رئيس فرسان القديس يوحنا ولهذا فقد اتخذ طابعاً أو مسحة دينية في العهود الصليبية وقد ترجمنا بالاستاذ ولكنها حرفية مدرس او معلم وقد فضلت الاستاذ لأقارب المعنى المقصود منها .

٢ ـ هذه الرسالة بتاريـــخ ٨ سبتمبر ١٥١٠ اوردها في كامل نصها M. de Los Heros في كتابه الذي سبقت الاشارة إليه (الخامس والعشرون ص ١٤٧) .

وهذا الصدى الذي أحدثـه التفوق والاستيلاء على مدينة طرابلس مهما كانت اهمية المدينة الحربية والتجارية لا نجد مبرراً له إلا في رد فعل نفسي عام مسيطر على المسيحية منـــذ احتلال القوى العثمانية المسلمة لمدينة القسطنطينيـة عاصمة الامبراطورية ومدخل القـارة الأوربيـة الشرقي .

اما صدى هذا الاستيلاء في العالم العربي فلم يكن كذلك، ولم ير العرب المسلمون فيه إلا مرحلة في صراع طويل وجولة خسرها العـــالم العربي ليست بالأخيرة في حرب طويلة الأمد . وبالرغم من الأسى والألم الذي أحدثته في البلدان المجاورة (تونس ـ مصر) خسارة هذه المدينة إلا أن القوى المسلحة فيهـــا لم تتأثر كثيراً به ولا هي أبدت أي محاولة لطرد الإسبان منها تاركة مسئولية ايقاف هذا الزحف وانهاء أمر الاحتلال إلى أهل البلد ذاتهم في بداية الأمر على الأقل .

إن ما يرويه عمر الباروني من أن السلطان أبا عبدالله الحسن لم يتوان في مد يد المساعدة للطرابلسيين وارساله لجيش تحت قيادة محمد بن شداد قاضي توزر ، فقد حدث عقد انتصار العرب في جربة وقرقنة وكنتيجة طبيعية له وليس عقب سقوط طرابلس مباشرة ،فقد كان تأثير ذلك عليه هو انصرافه إلى تحصين بلاده واستعداده لملاقاتهم فتدبر .

وليس معنى هذا أن الشعوب العربية في هذين القطرين لم تعبر عن الشعور بالأسى والسخط حينما علمت بخبر سقوط المدينة في يد الأسبان،

فقد ذكرت روايات الأسبان نفسها عن مظـــاهرات الاستياء التي قامت بالاسكندرية ودمياط وتونس ضد المسيحيين بها . وان كنا لا نتوقع من مصادر غير عربية أن تقدم لنـا الشيء الكثير من أخبار العالم العربي المعادي لها . أما الموقف الإيجابي الحقيقي الذي اتخذ فقد كان من سكان الإقليم ذاته وهو مـــا سيرد في مكانه من هـذا الفصل والفصل الذي يليه .

معنى الاحتلال السياسي ومداه الفعلي

سبق في الفصل الأول أن أشرت إلى المعنى السياسي للاحتلال الاسباني لمدينة طرابلس فذكرت أن الغاية منه هو اتخاذ الثغر قاعدة أمامية للقوى المسيحية في صراعها مع الإسلام ، وهو معنى دلت عليه في وضوح كامل رسالة فرديناند التي سبق لنا إيرادها هي الأخرى ورسالة التهنئة التي بعث بها رئيس القوات الصليبية لرودس إلى هذا الملك . ولا يعقل أن تكون له أية غاية أخرى غير هذه في البداية على الأقل فسنرى كيف تتحول هـذه الفكرة لدى الاسبان فيما بعـد إلى غاية استعمارية استغلالية .

أما غايته السياسية الثانية فاكتساب الملك فرديناند الكاثوليكي شعبية في العالم المسيحي تمكنه من التفوق على خصمه ومنافسه في فرنسا شارل الخامس في صراعهما من أجل الزعامة على العالم الأوربي، وما من شك في أن العالم الأوربي في مطلع القرن السادس عشر كان تحت تأثير النفوذ الكنسي والتعصب الديني ضد الإسلام ، وأن أعمالاً كهذه تدفعه إلى التعلق بمن يرضي تعصبه الديني ويزيد منه بملاحقة الإسلام والمسلمين .

أما الغاية الثالثة والتي لا تقل أهمية عن السابقتين فإن فرديناند ـ وقد حقق انتصاره وطرد المسلمين عن الأندلس التي تحولت إلى مركز للحضارة الإسلامية طوال قرون ـ لا بد له وأن يتخذ من الاحتياطات العسكرية ما يضمن له هذا الذي اكتسب ويحول دون فقدانه له، وهو يعلم أن الأندلسيين الذين طردوا من بلادهم على هذا الشكل الوحشي لا بد وأن يفكروا في العودة لاسترداد ما سلبوه من ملك وبلاد، فإذا لم يلاحقهم في بلدان الشمال الافريقي الذي لجأوا إليـــه ويملك زمام القوة فيه فسيجدون هناك من القوة والمال والرجال ما يمكنهم مما يريدون؛ وفي هذا ولا شك هلاكه وضياع الملك من يده.

أما السيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي فلن تحقق له إلا بالسيطرة على ثغوره الجنوبية التي قد تلجأ إليها سفن الأسطول العثماني المعادية لهولسائر المسيحيين، في هذا ما يهدد مستعمراته في جنوب ايطاليا (مملكة صقلية ـ نابولي ـ ساردينيا) وطرق مواصلاته إليها.

هذه الغايات الأربع هي التي تحدد عوامل الاحتلال الأسباني لمدن الشمال الإفريقي البحرية الهامة، وفيها يكمن المعنى السياسي ـ الحربي الاقتصادي لهـــذا التوسع الأسباني حتى مدينة طرابلس من الشمال الإفريقي.

أما مداه الفعلي كاحتلال فلم يجاوز في ليبيا اسوار مدينة طرابلس إلا في حدود ما تحميه قذائف مدفعية الحصون، وقـــد ظل هذا أقصى امتداده طوال الفترة التي حكموا طرابلس فيها. أما بقية الإقليم فقد

ظل كما كان قبل احتلالهم لها محكوماً من أهله بحكومات محلية صغيرة لا يتعدى حكم أي منها القرية أو المدينة وما يحيط بها من أراضٍ ومزارع. وما يذهب إليه بعض المؤرخين من إطلاق الحكم الاسباني على طرابلس الإقليم إنما هو من قبيل الاعتراف بأن حكم العاصمة هو في ذات الوقت حكم لسائر الإقليم ، غير أن هذا الحكم إن صدق في بعض الحالات فهو لا يصدق في هذه الحالة لتحول العرب الليبيين عن عاصمتهم التى أخليت من سكانها واستمرت قلعة عسكرية لا يسكنها غير الجند ، فهي لم تعد تمثل العاصمة السياسية ولا المركز التجاري ولا قيادة لها على بقية مدن الإقليم وقراه . وقد ظلت هكذا حتى سنة ١٥١٩ أو بعد هذا التاريخ بالتأكيد كما سنرى في هذا الفصل .

المقاومة الداخلية ومراكزها

احتل الاسبان طرابلس ولكنهم لم يخضعوا الليبيين لحكمهم، فقدمات من مات من أهلها في الدفاع عنها وفر من واتته الفرصة متسلقاً أسوارها (حسب الرواية الاسبانية) أو حتى قبل مهاجمتهم لها فيما ترويه المصادر غير العربية[1] وسبي من بقي بها حتى نهاية المعركة فسيق إلى أسواق أوربا حيث بيع رقيقاً في سوق النخاسة بالمزاد . وخلت المدينة بهذا من سائر

---

١ – في التقرير المنسوب الى الشخص المجهول والذي سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول خبر مفاده أن تاجراً من البندقية اخبر بواسطة تجار أقرباء له في صقلية بخبر الحملة التي يعد لها الاسبان على طرابلس قبل ٣٥ يوماً من حدوثها . وأن هذا التاجر قد أسر بالخبر إلى بعض الطرابلسيين مما ادى إلى انتشار الخبر بين السكان فخرج الكثيرون من تجارها بأهلهم وبما يملكون محملا على الأبل (قدرها بخمسة آلاف جمل) حيث لجأوا في المناطق المجاورة تاجوره وجنزور في انتظار ما سيحدث. ويقول عمر الباروني الذي أورد الخبر أنهم « لجأوا إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاته » (ص ٣٥) (نقلنا عن ايتوري روسي في كتابه .. Il Dominio Degli Spagn ص ١٧) .

ساكنيها وظلت كذلك عدة سنوات[1] ولم يمتد نفوذ الاسبان الى أبعد منها طيلة فترة حكمهم لها .

ومن الطبيعي أن يفكر أهل البلاد في استردادها وفي طرد العدو منها في البداية بمهاجمتها مرة ومرة حتى إذا فشلوا لحصانة أسوارهـا ومناعتها ، لاسيا وقد زودت حصونها وقلاعها بالمدافع وغيرها من أسلحة الدفاع التي حملها الاسبان معهم اتخـذوا مركزاً جديداً لهم حولوه مركزاً دفاعياً أمامياً يشنون منه هجماتهم عليها ، ومن الطبيعي أن يكون هـذا المركز بعيداً عن المدينة بعض الشيء على سبيل الوقاية ، كذلك من الطبيعي أن يكون هذا المركز الحربي شرقي المدينـة لا غربها لانعدام العدو خلفهم في مدن أخرى قد تهدد ظهره أو تحول

---

١ – يروي الاب برنيا في كتابـه طرابلس من سنة ١٥١٠ إلى سنـة ١٨٥٠ (ص ٢٢) أن أهـل المدينة الذين تخلوا عنها باللجـوء إلى الضواحي اتصلوا بالقائد بدرونافارو بعد أربعة أيام من احتلالها (٢٩ يوليه ؟) يفاوضونه في الصلح وفي تموين جيشه. غير أن قائد الحملة تحفظ في الجواب في انتظـار الاوامر أو المشورة من نائب الملك في صقلية . وهذا الخبر إن صح فنحن نعلم أن اوامر فرديناند إليه هي ان لا يمكن السكان من الحياة في المدن المحتلة ولذلك فإننا نحتمل رفض العروض المقدمة نهائيـا . ومن المؤكد ان الطرابلسيين قد تخلوا عن الفكرة حينما علموا بمصير إخوانهم الذين اسروا بها فليس من المعقول ان يدخلوا لسكناها ليساقوا رقيقاً الى اوربا .

بينهم والصلة بالشرق العربي قوة العدو المتسلطة على المدينة . وهكذا قرروا صلاحية تاجورة لهذا الغرض واتخذوها مركزاً دفاعياً لهم حتى نهاية الصراع بطرد المسيحيين من طرابلس سنة ١٥٥١ أي بعد ٤١ سنة من القتال على ما سيرد في هذا الفصل والذي يليه .

فشل التوسع الإسباني في تونس

كانت حملة الأسبان على طرابلس واستيلاؤهم عليها من بين الدوافع التي حملت الكونت بدرو نافارو على التفكير الجدي في الاقدام على غزو جزيرة جربة ومحاولة الاستيلاء عليها هي الأخرى ، اذ نراه يبحر في الثلاثين من يوليه ١٥١٠ بعدد صغير من السفن إليها لاحتلالها أو على الأقل لتقدير مدى قوتها الحقيقية وقدرتهـــا على الدفاع . ثم يعود إلى طرابلس يوم ٩ أغسطس ليعود فيبحر إليها من جديد ، وهذه المرة في عزم قاطع على الاستيلاء عليها. غير أن خبرته الحربية كقائد في البحر والبر لم تكن على المستوى المطلوب فيما يتعلق بالتخطيط العسكري للزحف براً في ظروف غير ملائمة له فادى خطأ ارتكبه بانزال قواتــه في منطقة من الجزيرة تبعد عن المركز السكني للجزيرة بضع كيلو مترات وإهماله التفكير في مشكلة مياه الشرب إلى هزيمة جنده وعودته يجر أذيال الهزيمة [1]. وقد فقد من الحملة بضع آلاف ومن اسطوله عدة قطع

---

١ ـ تعرض لذكر تفاصيل هذه الحملة عمر الباروني في كتابه « الاسبان وفرسان القديس=

بفعل العواصف فيما تقول المصادر غير العربية .

وكانت هذه الهزيمة ، ورغبته في غسل ما لحق باسمه من عار الفشل دافعاً له في غزو جزيرة قرقنه واستيلائه عليها . غير أنه ما إن أبحر منها حتى انقض سكان الجزيرة على الحامية الإسبانية وقضوا عليهم عن آخرهم مما قلب نصره إلى هزيمة ؛ ومما زاد في خذلانـــه وقواته شدة هجمات الليبيين على حامية مدينة طرابلس وأسوارها إلى جانب خوفه المستمر من مفاجأة الأسطول العثماني لسفنه في عرض البحر ، أو حتى في المياه الإقليمة لطرابلس أو جربة ؛ وهكذا انتهت اسطورة البطل الأسباني بدرو نافارو [1] . ومهما يكن من نتائج هـــذا الفشل

= يوحنا » فارجع في العربية إليه ، كما تعرض لها غيره من كتاب الإفرنج مثل ايتوري روسي في ... IL Dominio Dei Spagnoli والأب برنيا في «طرابلس من سنة ١٥١٠ الى ١٨٥٠» وغيرها .

١ - يذكر المؤرخ الاسباني مارتين دي لوس هيروس الذي ترجم لحياة هذا الرجل أن هذه الشخصية لم تظهر على مسرح أحداث طرابلس بعد هذا التاريخ ، وقد ذكر هـــذا ان الكونت بدرو نافارو خدم الاسبانيول ضد الفرنسيين في ايطاليـــا «سنة ١٥١٢؟ » وانه وقع سجين الفرنسيين حتى اذا أطلق فرنسوا الاول سراحه خدم الفرنسيين ضد مواطنيه حتى اذا قبض الاسبان عليه في اوائل سنة ١٥٢٩ حكم عليه بالاعدام بتهمة الخيانة ويعتقد ان الحكم فيه نفذ بقصر Dell'ovo بنابولي . غير أن نهاية مغامر أفاك خان بلاده في صفوف أعدائها لا ترضي الكاتب الاستعماري المسيحي الاب برنيا فابتكر أو مال إلى الاخذ برواية لكاتب استعماري آخر (Aurigemma) تضع له نهاية مشرفة إذ تجعله يموت في معركة تحت أسوار طرابلس .=

العسكري فمن الثابت أنه أدى إلى تحـــول فرديناند عن الشمال الافريقي .

= والغريب أن يرتاح عمر الباروني إلى الاخذ بهذه الرواية الاخيرة وهو الذي رجع إلى المصدر الذي يروي الرواية الاولى دون الثانية دون أن يفطن الى الغايـــة الاستعمارية في كتابات برنيا الذي يسكت ويغطي كل رواية غير مشرفة من تاريخ هذه الفترة كما حدث عند سكوته عن بيـع سكان طرابلس رقيقاً في اسواق أوروبا لانها كهذه غير مشرفة للمسيحيين .

الدور الأول من الحكم الإسباني

يمتاز العهد الأسباني في طرابلس في دوره الأول عنه في دوره الثاني بخلو المدينة من سكانها العرب في الأول وباعادة الشيخ عبد الله كحاكم مدني على العرب في الثاني .ويمتد الأول حتى سنة ١٥١٩ ـ ١٥٢٠ ويمتد الثاني حتى تسليمها لفرسان القديس يوحنا .

لقد انتهى حكم الشيخ عبد الله بن شرف الملقب بالمرابط مع غروب شمس يوم ٢٥ يوليه ١٥١٠ واستيلاء الأسبان عليها كما هو معلوم مما تقدم . ولا نعلم ما إذا كان الكونت، بدرو نافارو قد عين لها حاكما اسبانياً حين وجوده بها، غير أننا نشك في أنه فعل ذلك خلال الأيام الخمسة الاولى التي بقي فيها بطرابلس قبل سفره الأول إلى جربه، ولكنه ترك حكم المدينة لأحد رجاله واسمه Jayme Pedro Requenses إلى جانب آمر قيادة الحامية التي بقيت بالمدينة [1] . والذي يبدو أنه كان يخشى انتفاضة السكان عليه اذا ما

---

١ ـ عمر الباروني : كتابه السابق ص ٤٩ .

بقي شيخ البلد الأسير في المدينة لذلك أركبه وابناؤه وازواجه وأصهاره إحدى سفن اسطوله وبعث بهم الى مدينة باليرم بصقلية [1] . ولم تطل غيبته عن طرابلس فقد عاد إليها في التاسع من الشهر الثاني (أي بعد عشرة أيام فقط) كما لم يطل مدة بقائه بها ، فقد غادرها بكامل قواته وأسطوله عدا ثلاثة آلاف جنـــدي تركهم كحامية للمدينة المحتلة تاركاً حكم المدينة هذه المرة في يـد قائدين هما Samaniego و Palomino [2] وقصد جربة في ٢٧ أغسطس ١٥١٠ . فبقيت طرابلس تحـــت إمرة هذين القائدين إلى حين عودته يجرجر أذيال الهزيمة التي لحقت به وبجنده في جربة يوم ١٩ سبتمبر [3] .

وفي فترة غيابه هذه عن المدينة انتهز بضعة آلاف من العرب المور فرصة تناقص عدد الحامية ــ فيما يقول سانودو (في Diarii الحادي عشر ٦٣٩)ــ فهاجموا المدينة وفي معيتهم بعض المسيحيين الذين فروا من جيش نافاور وتمكنوا في هجومهم من الوصول إلى أعلى الأسوار غير أن الحامية الإسبانية تمكنت من صد الهجوم فتراجع العرب عنها [4] . ونحن وان كنا نتوقع من سكان ضواحي طرابلس القيام بعمل كهذا إلا أننا نستبعد أن يكون من بين المشاركين فيه قادة أو جنود بعض الفارين من قوات

---

١ – عمر الباروني : كتابه السابق ص ٤٩ .
٢ – ايتوري روسي ... Dominio dei Spagnoli
٣ – ايتوري روسي المصدر السابق ص ٢٤ .
٤ – ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٢٤ .

الأسبان لأسباب عدة ليس أقلها قرب المدة بين الغزو والهجوم العربي مما لا يكفي لبث روح الاطمئنان لدى العرب في هؤلاء المتمردين إلى حد اشراكهم معهم في أول محاولة يقومون بها لاسترداد المدينة من الاسبان .

وفي المدة التي بقي فيها نافارو بطرابلس وقبل مغادرته لها بحملته على جربة كان قد بعث بمعظم أو كل الأسرى المدنيين من طرابلس إلى صقلية حيث تم بيعهم رقيقاً قبل الثالث من سبتمبر وهو تاريخ رسالة قنصل البندقية في باليرم إلى حكومته حول هذا الموضوع على ما أثبته إتوري روسي في كتابه ... il Dominio Del Spagnoli نقلاً عن سانودو في ... Diariii (الحادي عشر ٤٦٨)[1] .

وفي اكتوبر أراد القائد بدرو نافارو مغادرة طرابلس بجنده وأسطوله عدا الحامية اللازمة للاحتفاظ بالمدينة للنفوذ الأسباني وعددها ٣٠٠٠ جندي فترك حكم المدينة لأحد قواده ويدعى Diego De Vera وأوغل في البحر غير إن إعصاراً شديداً أفقده العديد من الجند وعدداً من السفن واعاده إلى طرابلس من جديد[2] .

وفي خريف ذلك العام جهز نافارو حملة للاستيلاء على جزر قرقنه

---

١ – ايتوري روسي : المصدر السابق ص ١٨ .
٢ – ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٢٤ .

ليتخذ منها قاعدة تزود بالمياه للسفن العاملة ضد جربة أو ضد شواطىء الإقليم مستقبلاً. وكانت نتائج هذه الحملة هي الأخرى فشلاً وهزيمة وفناء فقد حدث أن ترك اربعمائة جندي بها تحت قيـــادة الكولونيل جيرولامو فيانيلو Girolamo Vianello الذي سبقت الاشارة إليه حـــين احتلال طرابلس لتعمل على تنظيف الآبار وتعميقها ، فلما جن الليل هوجمت هذه القوة من أهل الجزيرة وابيدت عن آخرها بما في ذلك قائدهـا [1] .

وهذه الحادثة بالذات هي التي دفعت بالأسبان في طرابلس إلى التشبث باوامر الملك فرديناند من وجوب إخلاء المدن التي يحتلها القراصنة الأسبان من ساكنيها وتنفيذه حرفياً وإلى أقصى مدى طوال تسع أو عشر سنوات فقد أصبح كل جندي وكل قائد يخاف ذات مصير جند وقائد قرقنه في المكان الذي فرض عليه البقاء فيه .

ومهما يكن من أمر فقد غادر بدرو نافارو طرابلس بعد هزيمة قرقنة هذه إلى جزيرة كابري التي وصلها بثلاث وعشرين سفينة من المائة والعشرين التي غزت طرابلس وبأربعة آلاف جندي من الثمانية عشر ألف جندي الذين كونوا جيش الحملة [2] . فإذا علمنا أن الحامية الأسبانية في طرابلس كانت خمسة آلاف رجـل وأجرينا عملية حساب

---

١ - ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٢٤ - ٢٥ .
٢ - ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٢٥ .

بسيطة أدركنا أن خسائر الأسبان في حملة طرابس وجربة وقرقنة قد كلفت الأسبان تسعة آلاف جندي ومعظم قوادها وسبعاً وتسعين قطعة من أسطوله وليس هذا بالنصر الذي توقعته الحكومة الأسبانية ولا هو بالمشجع لفرديناند على تنفيذ خطته في قيـــادة حملة توسعية بالشمال الإفريقي فتخلى لذلك ونهائياً عنها كما سبق القول .

أما ما ربحته أسبانيا في هـذه الحملة فالاستيلاء على مدينة طرابلس الخالية من السكان ، والتي ظلت مهددة من جانب الوطنيين خارجها طيلة فترة حكمهم لها والتي امتدت ٢٠ سنة كاملة ممـــا اضطرهم إلى التنازل عنها للتخلص منها في النهاية .

لقد بقي Diego de Vera بعد رحيل بدرو نافارو حاكماً لطرابلس وقائد حاميتهـــا ليس له من هم إلا الاحتماء وجنوده بأسوارهـا وصرف جميع جهودهم في تقويتهـــا وزيادة تحصينها . غير أن تحصين مدينة واسعة كطرابلس خالية من سكانها متهدمـــة المباني حتى تبدو وكأنها أنقاض آثار مهجورة منذ سنوات(لقد هدمت معظم مبانيها في معركة الاحتلال الأسباني لها) وهي التي وصفت بما قدمناه في الفصل الأول ليس بالعمل المجدي مـــع وجود القصبة أو الحصن ومع سهولة الدفاع عنه وصعوبة الاحتفاظ بها بخمسة آلاف جندي لذلك نراهم ينصرفون عن المدينة الخربة والأسوار المتهاونة إلى العناية بالقصبة وحدها جاعلين منها وحدها مركز دفاع عن الحامية والميناء فقاموا بترميم ما تهدم

منه مستخدمين في ذلك أحجار ومواد المباني المهجورة والأسوار المتهاوية[1] على ما ياتي من وصف وفد الفرسان للمدينة وللحصن معاً ؛ في الفصل التالي لهذا .

وفي عهد دي فيرا هذا أعاد الوطنيون هجومهم على المدينة وكانوا بعد الهجوم الأول الذي سبق ذكره قد بدأوا في التجمع وفي تكوين مراكز في الجبل وفي غريان وعلى مقربة من مدينة طرابلس ذاتها بتاجوراء (أو تاجوره)[2] وجنزور (أو زنزور)[3] . ويقول كل من ايتوري روسي والأب برنيا وعمر الباروني عن هذا الهجوم أن السلطان التونسي ابا عبدالله محمد بن الحسن (الحفصي) شعر أن الأسبان الذين استولوا على طرابلس وهاجموا جربة إنما يتحينون الفرص للقضاء عليه واحتلال بلاده ، ولعله أراد أن ينتقم لنفسه من الاعتداء على حرماته ، فجهز حملة لمؤازرة سكان طرابلس تحت قيادة محمد أبو شداد قاضي توزر (فيما يقوله القيرواني). وبهذا الجند التونسي وبعدد كبير من المواطنين (قيل إن عددهم قد بلغ أربعين ألفاً) هاجموا طرابلس وحاصروها في أوائل سنة ١٥١١ (فبراير) وكادوا أن يستولوا على الحصن الذي اقتصر دفاع الاسبان عنه تؤازرهم المدفعية والمجانيق وشتى الأسلحة، غير أن الذي حمل

---

١ - الأب برنيا : كتابه السابق ص ٢٤ .

٢ - ايتوري روسي : كتابه السابق ص ٢٥ .

٣ - ايتوري روسي : كتابه السابق ص ١٧ .

المهاجمين على التراجع عن فكرة الحصار المسلح ومحاولة استعادة المدينة هو استخدام الأسبان للغم ضخم راح ضحيته مئات المهاجمين وعـدد لا يستهان به حتى من الأسبان أنفسهم . وينفرد برنيـا الذي نقل الباروني عنه بذكر أن تدبير اللغم كان بمشورة من بدرو نافارو وأن هذا قد عاد إلى طرابلس وقتل في معارك الحصار هذه، وقد سبق لنا رفض هـــذه الرواية مع سببها ومسبباتها .

وكانت لهذه الحملة الهجومية لاسترداد المدينة من يد العدو آثارهـــا الطيبة رغم عدم نجاحها ، فقد كانت فيما نعتقد رادعاً صرف سكان صقلية المغامرين عن الاستجابة للنداء الذي نشره نائب ملـك صقلية [1] في بلدة كاتانيا يوم ١٦ اكتوبر ١٥١١ « إلى الذين يرغبون في سكنى طرابلس سيمنحون مساكن ملائمـــة وأراضي يزرعونها وعفواً من الضرائب والاتاوات لمدة عشر سنوات والعفو الناجز عن أية جناية مدنية أو جريمة قد ارتكبوها [2] » . فقـد ظلت مدينة طرابلس بالرغم من هذا العرض السخي المغري لكل مجرم وسفاح أو مغامر غير مسكونة من أحد : لا من المسيحيين الذين أريد اعادة تعمير المدينـــة بهم لحمايتها وضمان استمرار السلطان المسيحي عليها ، ولا من السكان الأصليين الذين نجوا

---

١ – Don Hugo de Moncada

٢ – ايتوري رومي: المصدر السابق ص١٣١ نقلاً عن G. Longo في La Sicilia e Tripoli ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٩ .

من الأسر ومن القتل .

وبالرغم من أن هجمات المواطنين عليها لم تنقطع أبداً إلا أنها وقد حصنت ورفعت أسوار الحصن واقتصر الدفاع عليه اتخذت تلك الهجمات طابع الغارة الخاطفة والحصار البري المستديم مما منع عن الاسبان أي إمكانية للحصول على حاجياتهم من الغذاء محلياً وجعلهم مدة السنوات الأولى يعتمدون كلياً على مــا تحمله السفن من صقلية ومن اسبانيا وغيرها .

ومنذ سنة ١٥١٢ كانت السفن التركية والجزائرية تشن بين الحين والحين غارات على مرفإها أو على سفنها حتى أصبح من المقلق لهم مجرد رؤيتها عند خط الأفق البحري .

وفي ذات السنة (١٥١٢) استبدل نائب الملك في صقلية حاكمها الذي خلفه بدرو نافارو ـ وكانت طرابلس تابعة لحكمه بحق اشرافه الاسمي على الحملة ـ بنبيل من نبلاء صقلية يدعى فرانشسكو باترنو Fr. Paterno فاستقر هذا حاكماً عليها بضع سنوات [1] .

وفي سنة ١٥١٣ أصدر ملك اسبانيا مرسوماً ولى به على طرابلس نائب ملك صقلية دون هوجو دي مونقادا De Moncada بالإضافة إلى نيابة الملك

---

١ ـ ايتوري روسي : ـ المصدر السابق ص ٣١ .

على صقلية ، وخصص لهـــا فيه مبلغاً مقداره ١٢ ألف دوكيا في السنة لتغطية النفقات اللازمة لإدارتها والاحتفاظ بها [١] .

وفي سنة ١٥١٥ هدد بربَاروسا Barbarossa [٢] طرابلس جدياً بأسطوله ولكنه لم ينتزعها من يد الأسبان [٣] .

وخلال هذه السنوات (وحتى سنة ١٥١٨ ؟) لم تعمر المدينة بالسكان فقد فشلوا في إقناع المسيحيين بالهجرة إليها واتخاذهـــا سكناً لهم ، فلم تتحول لذلك إلى بلد مسيحي كما كانـوا يتوقعون ويرغبون ، كما فشلوا كذلك في اجتذاب السكان الأصليين إليها حينما أرادوا ذلك فقد اشترط هؤلاء لعودتهم إليها ارجاع حاكمها السابق عبدالله بن شرف من أسره؛ وهو ذات الشرط الذي قدموه منذ سنة ١٥١١ والذي رفضه نائب الملك بصقلية مؤملاً في نجاح فكرته الرامية إلى تعميرها بالمسيحيين [٤] .

وفي سنة ١٥١٨ زار رحالة عربي اعتنق المسيحية وتسمى أو سمي باسم ليون أو ليو الأفريقي [٥] مدينـــة طرابلس وقال عنها ان

---

١ ـ ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٣١ نقـــلا عن سانودو في Diarii رسالة من باليرم بتاريخ ٢١ فبراير ١٥١٤.

٢ ـ سترد ترجمة حياته فيما بعد .

٣ ـ ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٣٨ نقلا عن سانودو .

٤ ـ ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٣٢ .

٥ ـ ترجم له عمر الباروني في: الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس» ص ٦٢، ٦٣ =

المدينة قد أخذت تنتعش وتدب الحيـــاة فيها غير أنه ذكر كذلك أن المدينة قد خربها الأسبان وهدموا مبانيها [1] . غير أننا لا نجد في تقرير وفد الفرسان الذي زار طرابلس سنة ١٥٢٤ أي بعد ست سنوات من هذه الرواية المبنية على المشاهدة ما لا يتفق والقول بانتعاش المدينة ، فقد ذكر التقرير أن سكانها من المغاربة المور لم يزد عددهم عن ستين عائلة تتولى سياسة الخيل وتخدم حامية الأسبان . وليس هذا القدر من السكان ، ولا هـــذا النوع منهم هم الذين تنتعش المدينـة بهم وتدب فيهـا الحيـاة .

=فقال: «الحسن بن محمد الوزان من مواليد غرناطة عاصمة المسلمين بالاندلس، ثم فر من الاندلس على اثر رسوم الملك الـكاثوليكي وانتقل مع عائلته إلى وزة بالمغرب وهناك تعلم اللغة والأدب ثم رحل الى بلاد كثيرة يكتب ويؤلف عن كل ما يراه ، ووقع في جزيرة جربة اسيراً في ايدي القراصنة المسيحيين الذين حملوه إلى روما وقدموه هدية للبابا ليون Papa Leone ،وتقبله البابا قبولا حسناً وقدره لعلمه وغزارة اطلاعه وسعة معلوماته ، واجـــبره ان يترك دينه فاضطر الحسن بن محمد الوزان ان ينزل عنـــد رغبة البابا فعمده وسماه البابا جوان ليون الافريقي. وسكن جوان ليون الافريقي روما وصار من الحاشية البابارية وتعلم اللغة الايطالية وترجم كتابه في الرحلات بنفسه إلى هذه اللغة » . ولم يحدد مصدره في هذا ولم نقف عليه عند غيره .

١ – يقول بالنص : « Tripoli ... Fu Poscia Ruinata Da'cristiani ... ...L castello Fortificarono «المسيحيين» con Forti Mora E Con Grosse Artiglierie; Siccome Noi Abbıamo Veduto Negli Anni MillecinqueCento Diciotto Di cristo». نقلا عن S. Aurigemma في IL Castello Di Tripoli Di Barberia (ص٥٣٨ .).

وكان الطرابلسيون قدفكروا سنة ١٥١٧ في الاستنجاد بخير الدين بر باروسا الذي استولى على مدينة الجزائر، غير أن هذا ـ فيما تقوله المصادر الايطالية ـ رفض الاستجابة للصريخ لأسباب لا تقنع الباحث أو ترضيه لما فيها من تحامل على الحقيقة . ولا نعتقد نحن إلا أنه وقد استولى على الجزائر باسم السلطان العثماني وانضوى تحت لوائه قد رأى أنه لا يجوز له أن يدخل في حرب مع اسبانيا للاستيلاء على معقل من أهم المعاقل البحرية المسيحية في الشمال الإفريقي من غير موافقة السلطان . وقد يكون الذي نصح بالالتجاء إليه في القسطنطينية حتى إذا أمر السلطان بذلك تقدم خير الدين لنصرتهم ضد العدو الغاصب لبلادهم .

وفعلاً فقد ذكر كل من ابن غلبون في التذكار (ص ٦٧) والنائب في المنهل العذب (ص ١٩٩ وما بعدها) والأمير شكيب ارسلان في حاضر العالم الاسلامي (ص ١٣٧ ثاني) أن وفداً ليبياً من تاجوراء قد توجه إلى القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ (١٥١٩ م) لهذا السبب نفسه[١] . ويشير ايتوري روسي إلى تكرار روجان اشاعة مجيء الأسطول العثماني لنجدة الطرابلسيين من سنة ١٥١٧

---

١ ـ سأعود لخبر الوفد بعد قليل وفي هذا الفصل ذاته .

حتى سنة ١٥٢٩ وتكرار الحديث عن اعداد الحملة وتجهيزها [1]. ولعل لوفد الطرابلسيين إلى خير الدين ، ثم إلى القسطنطينية دخل في روجان هذه الاشاعات وترددها .

ولما فشل نائب الملك بصقلية في اعادة الحياة إلى مدينة طرابلس من غير الرضوخ لما يشترط سكانها ويتمسكون به انصاع لهم فيه مؤملاً الاستعانة بنفوذه في اعادة الحياة إلى المدينة وفي احلال الأمن والاستقرار السياسي العسكري . وفعلاً — فيما يقول ايتوري روسي — فان رسالة الملك شارل الخامس سنة ١٥٢٠ تتضمن الموافقة على هذا المشروع الرامي إلى إرسال الشيخ لـ :

« Para Ganar Voluntades De los Pueblos Comarcanos Y Reducirlos à La Devocion Y Servicio Nuestro Y Para Tratar De Poblar A Tripoli »

وفي رسالة من باليرم بتاريخ ١٢ يناير ١٥٢٣ ما ينبي عن وصوله إلى طرابلس وعن تنصيبه والياً على ٥٠٠ أسرة من السكان المغاربة المور الذي عادوا لسكنى المدينة بعد عودته ولا يزالون يفدون وأن صرف لهؤلاء أخشاب ومواد أخرى للبناء ، والأمل كبير في

---

١ — ص ٣٩ من كتابه السابق نقلاً عن سانودو في Diarii (الرابع والعشرون ٥٦٧ ، الواحد والخمسون ١١١) .

أن تعود بتأثير الشيخ (عبـدالله شرف المرابط) المحبوب من سائر السكان ، إلى المدينة حالتها السابقة من الازدهار والرخاء[1] .

وبعودة الشيخ عبدالله المرابط حاكم المدينة الأسير إليها ينتهي الدور الأول من العهـد الأسباني في طرابلس بحسب ما سبق أن حددناه .

---

١ ـ ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٣٣ نقلا عن سانودو .

الدور الثاني من الحكم الاسباني

لم يكن السبب الرئيسي في تقسيم عهد الحكم الأسباني إلى دورين هو عودة حاكمها السابق إليها وإن كان هذا في الواقع من أهم الأسباب باعتباره نقطة تحول في السياسة الاسبانية تجـــاه هذه القاعدة الأمامية للمسيحية في بلاد الإسلام ودليلاً على تخاذل الأسبان وتراجعهم أمـــام التعنت الليبي واستسلاماً للمقاومة السلبية في الميدان الاقتصادي التي أصر عليها السكان وانتصروا فيها على العدو باخضاعه لمشيئتهم الصارمـــة الفولاذية . لم يكن هذا وحده فقد كان هناك في الواقع تحول آخر في الجانب المقابل للأسبان يتضح لنا في توجه وفدهم إلى السلطة العثمانية لتعينهم كقوة مسلمة على طرد العدو المغتصب لبلادهم واعادتها إليهم وإلى الإسلام . وهو تحول لم يتبلور إلا بعد عشر سنوات من الصراع أو حوالي ذلك، وإلا بعد أن وصلت السلطنة العثمانية بنفوذها إلى مصر وبرقة من بلاد العرب[1] وإلا نتيجة لمشورة خير الدين برباروسا إذا صح

١ ـ ساطع الحصري : « البلاد العربية والدولة العثمانيـــة » وآخرون . من المعلوم أن السلطان سليم قد احتل مصر وقضى على دولة المماليك بها سنة ١٥١٧ م وان برقة قد تبعت مصر في خضوعها للسلطان العثماني وإن تبعية اسمية لم تتخذ طابعها الفعلي الا بعد هذا التاريخ بزمن مديد . على ما سيأتي .

ما سبق أن احتملناه .

وعن الوفد الليبي إلى القسطنطينية يقول النائب [١] : « ولما تفاقم الخطب على أهل طرابلس واستفحل أمر ما نزل بهم من فتنة الاسبانيول ومغالبتهم على حاميتها وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف ، انتدب جماعة من أهلها سكنة تاجوراء ، ووفـــد وفدهم إلى دار السعادة العلية [٢] مستنجدين بالخلافة الإسلامية وكان ذلك سنة ست وعشرين وتسعماية ... [٣] فعرض أولئك الوفد استرحامهم على أعتابه الشريفة السلطانية وأوضحوا ما نزل بهم من البـــلاء الناشىء عن سوء تصرف ولاتهم ، فوسعهم براً وتكرمة وتوجهت عواطفه السنية إلى إغاثتهم ونجدتهم » .

ونحن نشك تاريخياً ـ على الرغم من تسليمنـا بها ـ في صحة هـذه الحادثة فأهل طرابلس قد يكونون قد ذهبوا إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان والاستنجاد بقواته على محاربة الاعداء المسيحيين في بلادهم فليس في هذا الأمر غرابة فالأتراك هم أقوى دولة مسلمة في حوض هذا البحر ،

---

١ ـ المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ١٩٩ وما بعدها .

٢ ـ يقول ابن غلبون « على ظهر سفينة » دون أن يحدد تبعيتها للطرابلسيين أو غيرهم .

٣ ـ وفي رواية ابن غلبون إضافة ان الوفد لم يكن يعرف اللغة التركية وان غرابة مظهرهم استلفتت الأتراك فسألوهم من اي البلاد هم فقالوا انهم من طرابلس الغرب وانهم قدموا لمقابلة السلطان فقدموا اليه وتولى الترجمة بين الوفد والسلطان(مراد اغا)الذي كان قد تربى في الشرق وعرف اللغة العربية ، والغريب ان يشكك عمر الباروني في هذا آخذاً الأمر على عموميته وناسياً ان جهل الوفد للغة الأتراك ليس معناه جهل السكان الطرابلسيين في مجموعهم لهذه اللغة وان الوفد انما تراعى فيه عادة المكانة الاجتماعية لا المقدرة اللغوية .

واخبار جهادهم ضـــد الروم قـد تردد صداها في العالمـين الشرقي والغربي على السواء . وخير الدين برباروسا قد يكون قد أشار عليهم بالذهاب إليه للاستنجاد به كما سبق وأن احتملنا ، وقـد يكون في هـذا راغباً من وراء ذلـك جر الأسطول العثماني إلى الصراع الدائر بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط . قد يكون هذا كله قد حدث فليس من المستبعد حدوثه ولكن نقطة واحدة في هذا الأمر تجعلنا نتحفظ في قبول فكرة دعوة أهل تاجوراء هذه ؛ تلك هي طول الفترة الزمنية بين سفر الوفد ومجي الأتراك إلى طرابلس واشتراكهم في الصراع والتي امتدت لأكثر من عشر سنوات . ويرتكز شكنا إذا كان لهذه النقطة قيمة على أساس ما للدولة العثمانية من مصالح سياسية في اختلاقها ودسها على التاريخ . فالاتراك لم يأتوا فاتحـين مستعمرين وإنما جاءوها ملبين دعوة أهل البلد فهم بالتالي أصحاب الفضل في هذا المجيء[1] .

أما عن عودة حاكم المدينة الأسير إليها فقد تمت ولا شك فيما بين سنة ١٥٢٠ و ١٥٢٣ ففي أولاهما صدر قرار الموافقة على إعادته وفي ثانيتهما نجده بالفعل في طرابلس حاكماً لحوالي ٥٠٠ أسرة من المور أي السكان الوطنيين

---

١ ــ وقد اثبت ساطع الحصري في المصدر السابق ذكره اختلاق الاتراك لمسألة الخلافــة واستلامهم لها من آخر الخلفـــاء العباسيين « ص ٤٢ ـ ٤٦ » وهي جرأة أبعد من هذه وقد سلم بصحتها المؤرخون .

قيل عنهم إنهم رجعوا إلى اتخاذ المدينة سكناً عقب عودته واطمئناناً إليه أو إلى الوضع الجديد . غير أن الأحداث التالية توحي بأن عودة السكان إليها إنما كان جزءاً من خطة مدروسة لفك الأسير من أسره وتمكينه من الهروب من أعدائه في النهاية .

أما ثراء المدينة الذي تحدث عنه المؤرخون وغالى في وصفه الزائرون قبل الاحتلال الأسباني ، فقد انتهى أمره ولم تعد طرابلس خلال العشر سنوات التي انقضت من حكمهم لها ذلك المركز التجاري الهام الذي يفوق تونس في حركته ونشاطه التجاري، فبالإضافة إلى تحويل المدينة بمبانيها البيضاء وشوارعها المستقيمة عرضاً وطولاً واسواقها العامرة وتجارتها الرائجة مع أوربا واواسط القارة إلى انقاض وأكوام من الحجارة والتراب والى خلوها من لسكان من أي نوع ، وإلى الحصار المحكم المضروب حولها من الوطنيين طيلة هذه المدة نجد الاسبان بعقليتهم غير الاقتصادية قد فرضوا ضرائب احتكارية بلغت٥٠ في المائة علاوة على الرسومات المحلية الأخرى على مستوردات التجار الاوربيين غير الاسبان في الوقت الذي أعفي هؤلاء من أية ضريبة أو رسوم أو حتى ما يستحق من عوائد الميناء على السفن [١] .

ويبدو أن هذا القرار قد اتخذ سنة ١٥١٨ فقد امتعض منه تجار البندقية حين صدوره لا لأنه يسبب لهم خسارة في السوق أو يفقدهم

١ – عمر الباروني : الاسبان وفرسان القديس يوحنا ص ٦٤ . ايتوري رومي Il Dominio dei Spagnoli ... ص ٣٠ .

إياها كما يؤكد ايتوري روسي ومن نقل عنه ، ولكن لما فيه من تحيز سافر للتجارة الأسبانية ضد غيرهم من المسيحيين وعلى حسابهم . وقد لجأوا إلى شارل الخامس موسطين في الأمر سفير بلادهم في اسبانيا ويسمى كرنارو Cornaro ليعمل على انقـــاذ الموقف بحمل سلطات طرابلس على العدول عن هذا القرار الذي سيقضي على وحدة المسيحيين في الصراع المسيحي الإسلامي من طريق المنافع الاقتصادية الذاتية [1] إن آجـلاً أو عاجلاً ولا شك . وإلا فان الحركـة التجارية التي كانت تمتاز بها أسواق طرابلس قد تحولت بالفعل ومنذ بدء العهد الأسباني إلى القرى والمدن الساحلية التي لجـأ التجار إليها واشتهرت من مدنها الساحلية بالنشاط التجاري مدينة مصراته « La Maxerata » .

وقد كان الاسبان يأملون في أن تعود مع اعادة الشيخ عبد الله حاكم طرابلس حياة الرفاه الاقتصادي الى المدينة ولكن هذا لم يحدث لأن من عاد إلى المدينة منهم لم يكن يهدف إلى الاستقرار واستئناف الحياة العادية بها ،حتى لو أراد، فإن حركة التجارة وانتعاشها فيها مع سيطرة الاسبان مستحيلة للنطاق المضروب حولها والذي يمنع من بداخلها عن الإتصال بالدواخل وأسواق السودان .

---

١ – ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٣٠ ومـــا قلنا به هنا من مخالفة لرأيه والذي لم يرجع فيه إلى مصدر مامن مصادر العصر فيما يبدو إنما اعتمدنا فيه على الوضع الاقتصادي لطرابلس التي لا ينطبق هذا القرار على غيرها من السواحل الليبية والذي مهما بلغ من الخسارة لغير الاسبان فلن يؤثر على التجار البنادقة إلى حد اللجوء لشارل الخامس ليعمل على إلغائه وايقاف العمل به .

وهؤلاء الخمسائة أسرة الذين قيل عن رجوعهم إليها سنة ١٥٢٠ الى ١٥٢٣ لا نجد في سنة ١٥٢٤ منهم سوى ستين أسرة فقط بينما لا أثر لبقية الأسر حسبما يؤكدتقرير وفد فرسانالقديس يوحنا إليها في تلك السنة.

وتقول المصادر الإيطالية عن الفترة فيما بين سنتي ١٥٢٠ و١٥٢٥ إنه لا يعرف شيء من أحداثها التاريخية سوى انتشار وباء خطير بين السكان سنتى ١٥٢٤ و ١٥٢٥ بين جند الحامية مما حال بين هؤلاء في القصر أو الحصن وبين دخول وفد الفرسان إليه خوف التعرض للاصابة به .

وسبب زيارة وفد الفرسان هذا لطرابلس هو أن فرسان القديس يوحنا ، وقد كانوا يعرفون قبل ذلك بفرسان بيت المقدس قبل فقدانهم لتلك المدينة ، وقد عرفوا بفرسان رودس حينما اتخذوا من هذه الجزيرة قاعدة بحرية ومركزاً للنظـام ، وفي أول يناير ١٥٢٣ طردهم السلطان سليمان القانوني من هذه الجزيرة فأبحروا منها وفق شروط الاستسلام وهم لا يدرون الجهة التي يقصدون وبعد تطواف على عدد من مدن الساحل والجزر انتهى بهم المطاف إلى روما حيث استقروا (رئيس النظام فرافليب فليري دي لزلي ـ آدام Fra Filippo Villiers De L'isle Adam ، مجلسه الأعلى والفرسان و شعب رودس الذي فضل اللحاق بهم) .

وبعد كثير من البحث والدراسة قرر فرسان القديس يوحنا المطالبة بجزيرة مالطا وقوزو Gozo باعتبارهما أحسن مكان في الوقت الحاضر

لمواصلة الكفاح الصليبي .[1] وفيما بعد ، وفي ظروف أحسن ، ربما سمحوا باختيار مكان أفضل ؛ لما في هذه الجزيرة ومـــا يجاورها من أمور غير مشجعة : صغرها ، واعتمادها الكلي على صقلية وبقية البلدان (المسيحية) الاخرى في الحصول على حاجياتها من المؤن بالإضافة إلى صعوبة وتأخر النجدات المسيحية حين الحاجة .

ولم ير شارل الخامس في طلب هذه الجزيرة ما لا يتفق ومصلحة الدولة والمسيحية فوجود قوة بحرية لها وزنها في قوى البحر المتوسط في هذه الجزيرة سيحمي مستعمراته في صقلية ونابولي ، ولكنه وقد وجد الفرصة المواتية للتخلص من مسئولياته في الاحتفاظ بمدينة طرابلس التي تكلفه الرجال والمال من غير أن تحقق أي كسب مادي أو أدبي للتاج أو الخزانة فقرن تنازله عن مالطة بتحملهم مسئولية الدفاع عن طرابلس وحصنها .

يقول بوزيـو Bosio المؤرخ المعتمد والمعـــاصر للفترة في كتابه Dell'istoria Della sacra Religione et illustrissima Miltia disan Giovanni Gierorslimitano (PAR. III). عن هذه المساومة : « طرابلس كما هي منعزلة لوحدها في أراضي العدو في منطقة فقيرة في مواردهـــا تشكل عبئاً لا يستهان به على الميزانية الامبراطورية ؛ وهي فوق ذلك سبب في احداث قلق عسكري مستمر في البلاط القيصري ؛ فقـــد حاول مغتنماً فرصة

---

١ – Salvator Aurigemma : - I Cavalieri Gerosolomitani A Tripoli negli Anni 1530 —1551 (Dall' Opera di Giacomo Bosio) P. 33.

المطالبة بمالطة وقوزو للتخلص منها . ولكنه قالها بأسلوب الرجل الذي كان طرفاً في هذه المفاوضات والذي تلقى هبة من ملك يملك ألا يعطي شيئاً. فقد حاول الامبراطور أن «يقدم مقراً أكثر ملاءمة للسكن مع مالطة وقوزو فأبدى استعداده للتنازل عن طرابلس وحصنها باقطاعها لهم ليقوموا بحكمها حكماً مباشراً نيابة عنه وعن خلفائه . أما فيما يتعلق بالاسلحة والذخائر فقد اشترط بأن يشتريها الفرسان بثمن يقدر ويدفع لخزينة جلالته في مدى ثلاث سنوات » .[١]

ولم يبد الاستاذ الأعظم للنظـــام ومجلسه ارتياحهم للشروط التي يضعها الأمبراطور كأساس لتنازله لهم عن جزيرتي مالطة وقوزو . فإن قوات الفرسان « كانت حينذاك من الضعف بحيث لا تستطيع أن تتحمل ثقل مسئوليـــة الدفاع عن الحصن وعن المدينة طرابلس الواقعة وسط أراضي العدو بعيدة عن أية نجدة . »[٢] ولكن وبعد اتفاق سري مع البابا ـ الراعي الاعلى للنظام ـ لمحاولة استرداد رودس، وفي انتظار ذلك رؤي أن لا تعطى إجابة قاطعة للامبراطور بالرفض او القبول وأن يطلب منه أن تتحمل الخزانة الأسبانية دفع المبلغ الذي كانت تتحمله لتغطية النفقات في شكل معونة سنوية للفرسان .

وفي سنة ١٥٢٤ قرر مجلس الفرسان الأعلى إيفـــاد الوفد الذي

١ ـ ص ٢٦ و ٢٧ من المصدر المذكور ، نقلنا عن أوريجما في... I Gavalieri Geros ص ٣٤ و ٣٥ .

٢ ـ بوزيو · المصدر المذكور ص ٢٧. نقلنا عن أوريجما : المصدر السابق ص ٣٦ .

أشرنا إليه والمكون من ثمانية فرسان لدراسة وضع الحصن والمدينة الاستراتيجي والطبيعي وتقدير مدى تحصيناتهما وقدرة الفرسان على الاحتفاظ بهما في حالة قبولهم العرض ومدى المسؤليات المادية والعسكرية التي يجب توفيرها لهذا الغرض في حالة القبول بالعرض .

وقد قدم هذا الوفد أو اللجنة تقريره الذي نقل عنه بوزيو مباشرة (وهو المصدر الأول لهذا) وعنه ننقل نحن ما ضمن هذا التقرير لقيمته « التاريخية : « إن طرابلس تتمتع بسماء صافية وهواء صحي غير معرضة للأوبئة على الرغم من وجود مصابين بها في الوقت الحاضر[1] . وإن محيط أسوارها يبلغ ثلاثة آلاف وستمائة وثماني وعشرين خطوة ، ويحيط بثلثيه البحر أما الباقي فيطل على اليابسة في مساحة مستوية ورملية . ومن الأسوار المذكورة بعالية مائتا خطوة منهارة هدمت لتقوية جدران الحصن والقائم منها قديم البناء وفي عدة أماكن يهدد بالسقوط والانهيار .ولا يزيد ارتفاع الاسوار المذكورة عن قصبتين ونصف أما عرضها فحوالي القصبة الواحدة ، تنقصها العوارض ويدعمها فقط

---

١ ـ لعلهم يشيرون بهذا الى الوباء المنتشر بين جند الأسبان بالحصن مما حال بينهم ودخوله حين الزيارة .

بعض المساند[1] قليلة النفع في حالة استخدام المدفعية. خنادقها غير متسعة وقليلة العمق، ومنازلها ومبانيها العامة منهارة جميعها تقريباً. وبها كثير من الآبار والصهاريج (خزانات مياه الأمطار).

ويشرف على المدينة مرتفع من الارض غير بعيد منها يتهددها كلها ولاسيما الميناء والحصن الواسع الفسيح. ومن الضروري إعادة بنـــاء الاسوار من الاساس وتقويتها حسب الطرق الحديثة وهذه أعمال ونفقات تفرض على الملك القوي التريث للتفكير الجدي فيها قبل الإقدام عليها لما تتطلبه من جهد وزمن. ولا بد من جلب الطوب والحجارة والجير وكل المواد اللازمة للبناء من بلدان أخرى. وبالنظر لطبيعة الاسوار يتحتم حفر الاساس الذي تقوم عليه إلى أعماق مناسبة لتثبيتها وسط الرمال والمياه. ويمكن عزل المدينة (محاصرتها) ولكن حاجتها إلى المياه العذبة لن تكون لقدرة رمال المغرب على الترشيح (يقصد بهذا امكانية التزود بالمياه من الطبقة المائية تحت السطحية ؟)

ولم يدخل وفد الفرسان هـــذا إلى الحصن بسبب انتشار الوباء بين رجال حاميته، ولكنه قام بقياسه من الخارج فكان محيطه: من الجنوب

---

١ - في الأصل Barbacani وقد ترجمناها بمساند « مفردها ساند » لأنها تعني تلك الإضافة في سمك الجدار المتسعة القاعدة والتي يقل سمكها نتيجة ميلانها الى الجدار كلما ارتفعت عن الأرض وهي عادة انما تقام كسند يمنع الجدار من التداعي حين الخوف من ذلك.

إلى الشمال ١٦٠ خطوة ومن الشرق إلى الغرب من الجانب المطل على المدينة ٢٠٠ خطوة . ونفس المسافة للجانبين المقابلين لهما تقريباً . وتحيط المياه جوانب ثلاثة منه تجري في خندق عرضه ٤٤ خطوة وعمقه قصبتان تغطي المياه الجارية منهما خطوتين أو ثلاثاً . أما جدران الحصن فيبلغ ارتفاعها خمس قصبات وفي جانب الخندق عند الشاطىء من جهة الشرق بئر واحدة وبداخل الحصن ثلاث آبار ملحة المياه . اما الحصن فقد شيد على صخور رخامية ، ولا يعلوه سوى برجين مدببين يواجهان مباني المدينة . أمابقيته فعلى الطراز القديم . وقد تآكل بفعل أمواج البحر الجوانب السفلى من جدرانه . وهو يصلح سكناً للحاكم وحاشيته وجنوده غير أنه في حاجة إلى كثير من الاصلاحات والترميم ليمتنع تساقط المطر من سقوفه ، ويوجد به عدد من المطاحن اليدوية الجيدة . ويصعب الاحتفاظ بالحنطة (القمح)لمدة طويلة [١] .

وبالنظر لتجربتنا القريبة العهد في رودس فإن اقتحام الحصن تبدو لعدم ارتفاعه سهلة ميسورة ولتعرضه للمدفعية التي تنصب على المرتفع الذي سبقت الاشارة إليه . ولضعف جدرانه التي تتراكم الرمال عليها ولخنادقه التي يسهل ردمها ويمكن بسهولة منذ اليوم الأول إقامة المدافع على جوانبها .

أما دخل الحكومة بها فلا مصدر له غير ضرائب الجمرك بواقع

---

١ ـ لم يقل التقرير لماذا ،وربما للرطوبة المتسربة من جدرانه.

عشرة في المائة على البضائع ، و(٢) دوكيا على الرأس على جميع أنواع الرقيق الذين يؤخذون حين الدخول و دوكيا واحداً على الرأس حين الخروج. ولم يجبَ من كل هذا خلال ثلاث سنوات كاملة عدا ثمانية أوتسعة آلاف دوكيا فقط . ولكن إذا وفر النظام (الفرسان) مائة فارس ، وشن الحروب براً وبحراً فان الأمل في ارتفاع قيمة المتحصل من هذه الضرائب قوى . أما أقرب الأراضي الممولة لها من المور (المغاربة) فقرية تاجوراء الواقعة على بعد ١٢ ميلاً إلى الشرق ، وقرية زنزور الواقعة هي الأخرى على بعد ١٢ ميلاً الى الغرب من المدينة .

وللمدينة ميناء جيد جداً تحميه اليابسة وعدد من الجزر . يتسع لإيواء عدد محدود من السفن الصغيرة التي لا تزيد حمولتها عن ٦٠٠ برميل خشبي . وهو (من وجهة النظر الاستراتيجية) ليس إلا فرضة ساحلية معرضة للعدوان لا تحمي ما بها من السفن التي يمكن قصفها بالمدفعية سواء من المرتفع المذكور أو من مرتفع آخر يسيطر عليها من الجنوب الشرقي كما يمكن دك جميع ما بالميناء من عرض البحر .

يوجد بالمدينة ستون منزلاً للمور (المغاربة – السكان الوطنيين) شديدي الإخلاص لجلالة الملك (الاسباني) يملكون خمساً وعشرين فرساً يغيرون بها على المور الآخرين وفيما بينهم يقتسمون الغنائم دون أن يعطوا منها شيئاً للحاكم .

وللإنفاق على طرابلس وحاميتها علاومة عن دخل الميناء يقدم الملك (الأسباني) إلى حكومتها ١٢ ألف دوكيا كل سنة ، كما يقدم للحامية

حاجتها من الذخيرة ومن الأسلحة ويوجد حالياً عدد كبير من المدافع الجيدة بها . »[1]

ومن الوصف الدقيق إلى حـد ما للمدينة وللحصن من حيث الأستراتيجية والامكانيات الاقتصادية والظروف الاجتماعية والصحية للحامية والسكان.وبمقارنتها بما سبق من وصف للمدينة والحصن والأسوار نستطيع أن ندرك إلى أي مدى تدهورت حالتها من جميع النواحي في عهد الأسبان هذا . كما أننا بالرجوع إلى تقديرات دخل الميناء في ثلاث سنوات ندرك مدى انعدام الصدق في رواية الرحالة ليون الإفريقي الذي زارها سنة ١٥١٨ وقال عنها وعن أسواقها وتجارتها ما أورده عنه عمر الباروني في صفحة ٦٣ من كتاب « الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس » كما ندرك منها صحة ما ذهبنا إليه في تفسيرنا للدوافع التي حملت التجار البنادقة على اللجوء إلى شارل الخامس ليأمر بتعديل أو يعمل على تعديل الطريقة التي اتبعت في فرض الضرائب على التجار من غير الأسبان بنسبة ٥٠ ٪ وإعفاء هؤلاء منها . كما أن فكرة عودة السكان الوطنيين إلى سكنى المدينة عقب عودة شيخ البلدة إما أن تكون مكذوبة من أساسها لتغطية أمر إعادة هذا إلى المدينة . وإما أن تكون في حقيقتها على ما سبق أن ذكرت من أن اشتراط السكان عودة الحاكم الأسير إنما كانت لتخليصه من أعدائه وأنهم عادوا فتسربوا منها وتركوها من جديد

---

١ – ص ٢٩ و ٣٠ من القسم الثالث من كتاب بوزيو نقلنا عن الأصل الذي قدمه له س . اوريجما في المصدر السابق ص ٣٧، ٤٠ .

بعد عودته .ولم يبق منهم غير الستين أسرة التي ورد ذكرها في تقرير وفد الفرسان ، ونحن أميل إلى هذا التعليل الاخير ـ وان بتحفظ ـ لما نعلمه من فرار هذا الحاكم في سنة ١٥٢٦ من آسريه وعودته إلى الحياة بين مواطنيه والتمتع بحريته من جديد .(١)

ولم يكن هذا التقرير مشجعاً لأستاذ الفرسان الأكبر ومجلسهم الأعلى على قبول عرض الملك شارل الخامس فيما يتعلق بطرابلس، غير أن تركهم لها معناه تخليهم عن مالطا كذلك ، ولا حل لهم سواها . فماطلوا وسوفوا وحاولوا التأثير بكل وسيلة مشروعة، فلما غلبوا على أمرهم قبلوا بالعرض ووقع الملك شارل الخامس يوم ٢٤ مارس ١٥٣٠ على صك التنازل عن طرابلس، وبهذا انتقلت طرابلس من يد الأسبان إلى فرسان رودس الذين عرفوا بعد انتقالهم إلى مالطا باسم فرسان مالطا . وانتهى عهد حكم الاسبان لطرابلس المدينة .

ومما تقدم جميعه يتضح لنا كيف أن الأسبان لم يجاوزا في حكمهم أسوار المدينة وأنهم كانوا عليها أشد من أي وباء . لقد قتلوا وأسروا أو شردوا سكانها وهدموا دورها وحطموا أسوارها وقضوا على نشاطها التجاري وأنهوا عهداً اشتهرت فيه بالثراء والرفاهية ولم يتورع مع هذا العمل كتاب الأفرنج من المؤرخين عن نسبة نشر الفساد والدمار إلى العرب

---

١ ـ ايتوري روسي : المصدر السابق ص ٣٩ نقلا عن سانودو في Diarii رسالة ٢٦ ـ ٣ ـ ١٥٣٦ في المصدر .

والحكم العربي، وكان هذا الذي فعله الأسبان إصلاح وعمران. ولكنه عيب التاريخ الحديث الذي دس من طريقه المستعمرون لخدمة الاستعمار على العرب والتاريخ العربي نقائصهم فيه ، وحاولوا بهذا أن يجعلوا من العهد العربي في الشمال الافريقي عصر انحطاط وتاخر ، ومن العرب لصوص بحار يدفعهم التعصب الديني الأعمى حيثما حلوا لنشر الخراب والدمار . والتاريخ إذا ما اعيدت كتابته سيبرىء العهد العربي من هذه النقائص ويرد التهم إلى ذويها ويلصقها بمرتكبيها ، وهذا واجب العروبة على كل مؤرخ عربي يؤمن بالحقيقة وبحقه في إعادة كتابة التاريخ العربي من جديد .

المراجــع

١) احمد النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب .

٢) التجاني : رحلة التجاني .

٣) عمر الباروني : الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس .

٤) مصطفى بعيو : دراسات في التاريخ اللوبي .

٥) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية .

6) Ettore Rossi : - Il Dominio Degli Spagnoli e dei Cavalieri Di Malta in Tripoli .

7) « « : - La Cronaca Araha Tripolina di Ibn Galbun (Secolo x vIII) .

8) S. Aurigemma : - Il Castello di Tripoli di Barberia .

9) « « : - I Cavalieri Gerasolimitani a Tripoli .

10) P. Franc . Bernia : - Tripoli dal 1310 al 1850 .

الثمن (٣٠) قرشاً ليبياً

مطابع الغندور - بيروت